﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم: 17 - 25]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

المُغترّونَ بالدُّنيا ونعيمِها يكذِّبون، فيخسرون الآخرةَ والدُّنيا ويَشْقَون

لمّا كانَ التَّكذيبُ بالحقِّ والآياتِ قائمًا على الاغترارِ بالدُّنيا وما فيها من أموالٍ وبنينَ؛ ظنًّا منهم أنَّها باقيةٌ مُعمِّرةٌ؛ ناسَبَ أنْ يُشبِّهَ ابتلاءَهم بالدُّنيا وغُرورِها بابتلاءِ أصحابِ الجنَّة الَّذين افتُتِنوا بها، وأرادوا أن تكونَ خيراتُها مُنحصِرةً فيهم لا يشارِكُهم فيها أحد، وهذا شأنُ المُكذِّبين بالحقِّ، أنَّهم مُغترّونَ بدُنياهم؛ فلا يريدونَ إنفاذَ حقٍّ عليهم أوْ تقديمَ طاعةٍ منهم، فكانتْ عاقبةُ أمرِهم خسارةَ الجنَّةِ الدُّنيويَّة والجنَّةِ الأُخرويَّة، والحصولَ على العَذابِ المُهين، وكذلك عاقبةُ المُكذِّبين بالآياتِ الحَقَّة يَخسَرونَ دُنياهم وآخرتَهُم معًا، قال الهرريُّ: "مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها أنَّه ﷺ لمّا ذكر فيما سلف أنَّ (ذا المالِ والبنينَ) كفرَ، وعصَى، وتمرَّدَ؛ لما آتاه اللّهُ منَ النِّعَم؛ أردفَ هذا ببيانِ أنَّ ما أوتيَهُ إنَّما كان ابتلاءً وامتحانًا؛ ليرى أيصرفُ ذلك في طاعةِ اللّه وشُكرِهِ، فيزيدُ له في النِّعمة، أم يكفرُ بها؟ فيقطعُها عنه، ويَصبُّ عليه ألوانَ البلاءِ والعذاب، كما أنَّ أصحابَ الجنَّة لمّا أتَوا بهذا القَدرِ اليسيرِ من المعاصي؛ دمَّر اللّهُ جنَّتَهم، فما بالُك بمَنْ حادَّ اللّهَ ورسولَهُ، وأصرَّ على الكُفر والمَعصية؟"[1].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 77.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾: (صرم) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ مُطَّرد، وهو القطعُ، من ذلك: صرمُ الهِجران، والصِّرام: آخِرُ اللَّبن بعدَ التَّغزير، وآخرُ الشَّيءِ عندَ انقطاعِهِ؛ فأمّا الصَّريم؛ فيقال: إنَّه اسمُ الصُّبحِ واسمُ اللَّيل، وكيفَ كان فهو من القياس؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يَصرِمُ صاحبَهُ، ويَنصرِمُ عنهُ[1]، والصَّرمُ: القطعُ البائنُ للحبلِ والعِذْق، وقد صرمَ العِذق عنِ النَّخلة[2]، فهو الفرقُ بالقطعِ، وليسَ بمُطلقِ فرقٍ ولا قطعٍ، فيُقالُ: صرمَ النَّخلَ والحبلَ والعِذْق؛ إذا قطعَ جزءًا منها، وفرَّقَها عنِ الأصلِ[3]، والمرادُ بهِ في الآية: قطْعُ الثَّمرِ معَ خَزْنِهِ وعدمِ إبقاءِ شيءٍ منهُ للفُقراء.

2) ﴿مُصْبِحِينَ﴾: (صبح) أصلٌ واحدٌ مُطَّرد، وهو لونٌ من الألوان، قالوا: أصلُهُ الحُمرة، وسُمّي الصُّبح صُبحًا لحُمرتِهِ، ولذلك يقالُ: وجهٌ صبيحٌ، والصَّباح: نورُ النَّهار[4]، وأصبحْنا: دَخلنا في الصَّباح[5]، والإصباحُ: صيرورةُ شخصٍ أوْ شيءٍ ذا صباحٍ، وهو لازمٌ[6]، والمرادُ به في الآية: وقوعُ الصَّرمِ، وهم داخلونَ في وقتِ الصُّبح وأوَّلِ النَّهار.

3) ﴿طَآئِفٌ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يَحُفَّ به، يقالُ: طافَ به وبالبيتِ يطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، ثمَّ يقالُ لما يدورُ بالأشياءِ، ويُغشّيها من الماء: طَوَفان، ومن البابِ الطّائفُ، وهو العاسُّ[7]، وطافَ بالشَّيء: استدارَ به، والمَطافُ: مَوضِعُ الطَّواف، وأطافَ بالشَّيءِ: أحاطَ به، واسمُ الفاعل طائفٌ[8]، فهو حركةٌ حولَ شيءٍ، مادّيًّا أوْ معنويًّا، وسواءٌ كان أمرًا مطلوبًا أوْ غيرَه[9]، والمُرادُ به في الآية: ما يُحيطُ بهم، ويدورُ عليهم من عذابٍ ونِقمةٍ غاشيةٍ يُقهَرونَ بها.

4) ﴿ٱغْدُواْ﴾: (غدو) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زمانٍ، من ذلك الغدوُّ، يقالُ: غَدا يَغدو،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صرم).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 6/ 243.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (صبح).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 6/ 184.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (طوف).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 150.

والغُدوةُ والغَداةُ[1]، وغدا غُدوًّا (من بابِ قَعَدَ): ذَهَبَ غُدوةً، وهي ما بينَ صَلاةِ الصُّبح وطلوعِ الشَّمس، هذا أصلُهُ، ثمَّ كَثُرَ حتّى استُعمِلَ في الذَّهاب والانطلاقِ في أيِّ وقتٍ كان[2]، والغُدوةُ: البُكرة، واغتدى: بكَّرَ[3]، فهو تحوُّلٌ معَ جرَيانٍ، كالتَّحوُّلِ في اللَّيل وجَرَيانِهِ إلى أن يزولَ آثارُ اللَّيل، وهذا المَعنى يتحقَّقُ من أوَّلِ الفجرِ إلى طلوعِ الشَّمس، فلا بدَّ في تحقُّق هذا الأصلِ مِن لَحاظِ قيدينِ: التَّحوُّلُ، وجَرَيانُهُ[4]، والمُرادُ به في الآية: تحوَّلوا من حالةِ النَّوم إلى الإقبالِ على الحَرْثِ أوَّلَ النَّهار.

5) ﴿حَرْثِكُمْ﴾: (حرث) أصلانِ، أحدُهما: الجَمْعُ والكَسْبُ، والآخَرُ أن يَهزلَ الشَّيءُ[5]، وحرثَ الرَّجلُ المالَ حَرْثًا (من بابِ قتلَ)، فهو حارِثٌ، وحرَثَ الأرضَ حَرْثًا: أثارَها للزِّراعة[6]، والحَرْثُ: الزَّرع، والحَرّاثُ: الزرّاع[7]، فهو بلوغُ المَحصولِ منَ الزَّرع، وتحصيلُ النَّتيجةِ منه، وهذا المَعنى إنَّما يتحقَّقُ بعدَ الزَّرع وقبلَ الحَصاد، وفي هذا المَقام ظهورُ ما زُرِعَ واخضرارُهُ وتجلّيه، والمُرادُ به في الآيةِ: الزَّرعُ الصّادق بجميعِ ما يُزرَعُ من أثمارٍ وحُبوبٍ وخُضارٍ.

6) ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾: (خفت) أصلٌ واحدٌ، وهو إسرارٌ وكِتمانٌ، فالخَفْتُ إسرارُ النُّطق[8]، وخَفَتَ الصَّوتُ خَفْتًا من بابِ (ضَرَبَ)، ويُعدَّى بالباءِ، فيقالُ: خفتَ الرَّجلُ بصوتِهِ؛ إذا لم يَرفَعْهُ، وخافَتَ بقراءتِهِ مُخافتَةً، وخَفَتَ الزَّرعُ ونحوُهُ؛ إذا ماتَ، فهو خافِتٌ[9]، وهو خفضُ الصّوت إلى حَدٍّ يَقرُبُ منَ السُّكون والإسرارِ، وهذا المَعنى في مُقابِلِ الجَهْرِ، فإنَّ الجَهْرَ: هو رفعُ الصَّوتِ والإظهارُ بحيثُ يَسمَعُ كلُّ أحدٍ يقرُبُ منهُ عَلَنًا[10]، والمُرادُ به في الآية: يُخفِضونَ أصواتَهم، ويُخفونها إسرارًا بينَهُم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غدو).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (غدو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غدو).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 209.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرث).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (حرث).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (حرث).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفت).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (خفت).
(10) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 85.

7) ﴿مِّسْكِينٌ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ، يدلُّ على خِلافِ الاضطِراب والحَركة، يقالُ: سكنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، فهو ساكِنٌ[1]، وسَكَنتُ الدّارَ سَكْنًا من بابِ (طلَبَ)، والسَّكَنُ: ما يُسكَنُ إليه من أهلٍ ومالٍ وغيرِ ذلك، وهو مصدرُ سَكَنْتُ إلى الشَّيء، والسَّكينةُ: المَهابة والرَّزانة والوَقار، وسَكَنَ المُتحرِّكُ سُكونًا: ذهبَتْ حركتُهُ، والمِسكينُ مِن هذا؛ لسُكونِه إلى النّاس[2]، والمِسكينُ (مِفعيلٌ) مبالغةٌ في السّاكن، وهو الَّذي بلغَ في السُّكونِ إلى أقصاهُ، ويُعبِّر هذا عمَّن يكونُ محدودًا قدرةً وقوَّةً وتَمَكُّنًا، بحيثُ يَعجَزُ عن السَّعي والجُهد في توسِعة المَعيشة، إمّا لمَرضٍ أوْ لهَرَمٍ أوْ لضعفٍ في البدَنِ أوْ في المالِ[3]، وهو المُرادُ في الآية.

8) ﴿حَرْدٍ﴾: (حرد) أصولٌ ثلاثةٌ: القَصْدُ، والغَضَبُ، والتَّنحّي[4]، وحَرَدَ يَحْرِدُ حَرْدًا: قصدَ، ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾، أي: على قَصْدٍ، وقيلَ على مَنْعٍ، مِن قولِهم: حارَدَتِ الإبلُ حِرادًا، أي: قلَّتْ ألبانُها[5]، والحَرْدُ: المَنعُ عن حِدَّةٍ وغضَبٍ[6]، فهو التَّنحّي على حِدَّةٍ، وبتناسُبِ هذا المفهوم تُستعمَلُ في الغَضَبِ والمَنْعِ والعُدولِ والاعوجاجِ والنَّكَدِ، وهو قِلَّةُ الخيرِ والمنعُ عنِ الدَّرِّ[7]، والمُرادُ به في الآيةِ: التَّنحّي عنِ المَساكينِ والحِدَّةِ عليهم.

9) ﴿قَٰدِرِينَ﴾: (قدر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ وكُنهِهِ ونِهايتِهِ[8]، وقَدَرْتُ الشَّيءَ قَدْرًا من بابَي (ضَرَبَ وقَتَلَ)، والقَدَرُ: القضاءُ الَّذي يُقدِّره اللّٰه تعالى، وإذا وافقَ الشَّيءُ الشَّيءَ؛ قيلَ: جاءَ على قَدَرٍ، ورجلٌ ذو قُدْرةٍ ومَقدرةٍ، أي: يَسار، وقَدَرْتُ على الشَّيءِ أقْدِرُ من بابِ (ضرَبَ): قَوِيتُ عليه، وتمكَّنتُ منه، والاسمُ: القُدرةُ، والفاعلُ قادرٌ وقديرٌ، والشَّيءُ مَقدورٌ عليه[9]، فهو دالٌّ على القوَّةِ في اختيارِ إيتاءِ الفعلِ وتَركِه، بمعنى: أنَّ له قوَّةً؛ إنْ شاءَ فعلَ بها، وإنْ لم يشأْ؛ لم يَفعَلْ، والمُرادُ به في الآيةِ: (قادرينَ على الدَّرِّ والخيرِ، ولكنَّهم نَكِدوا)[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (سكن).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 169.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرد).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (حرد).
(6) الرّاغب، المفردات: (حرد).
(7) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: (حرد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (قدر).
(10) المصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن: 2/ 176، 9/ 193.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضَـرْبُ القَصَصِ والأمْثال للعِبرة والعِظة بعاقبةِ المآل

أي: إنّا اختبرنا أهلَ مكَّة، وأصبْناهُم ببليَّةٍ مثلَ ما بَلَونا أصحابَ الجنَّةِ المعروفِ خبرُها عندَهم، قيلَ: كانتْ بأرضِ اليمنِ قريبًا من صَنعاء لرجلٍ؛ كان يُؤدّي حقَّ الله منها، فماتَ، فصارَتْ إلى ولدِهِ، فمَنَعوا النّاس خيرَها، فكانَ ما ذَكرَهُ اللّهُ تعالى؛ إذ حَلَفوا؛ لَيَقْطَعُنَّ ثمارَها بعدَ نُضجِها واستوائِها وقتَ الصَّباحِ قبلَ أنْ يخرُجَ المساكينُ؛ كي لا يَشعُروا بهم، ولا يستثنونَ منها حِصَّةَ المساكينِ، كما كان يفعلُ أبوهُم، فنزلَ على الجنَّة، وأحاطَ بها من كلِّ جانبٍ بلاءٌ مُحيط وعذابٌ، وهُمْ نائمونَ أوْ غافلونَ غفلةً تامَّةً عمّا جرَتْ بهِ المقاديرُ، فأصبَحَتْ جنَّتُهم كالبُستانِ الَّذي صُرِمت ثمارُهُ، وقُطِعَتْ بحيثُ لم يبقَ فيها شيءٌ، فنادَى بعضُهم بعضًا وقتَ الصَّباح أنِ اخرُجوا مُبكِّرين إلى بُستانكم إنْ كنتُم مُصرّين على الصَّرمِ وقطعِ الثِّمار، فاندفعوا مُسرعينَ وهم يَتشاورونَ فيما بينهُم بطريقِ المُخافتةِ والمُسارَّة، مُتواصّينَ قائلًا بعضُهُم لبعض: لا يُمكِّنْ أحدٌ منكم اليومَ مِسكينًا من دخولِ الجنَّة عليكُم، وساروا في أوَّلِ النَّهار إلى جنَّتِهم قادرينَ على مَنْعٍ، أوْ غضَبٍ، أوْ سُرعةٍ ليس إلّا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾:

استقلالُ الكلامِ لتحقيقِ الانتباهِ لخطورةِ المقام

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ عمّا قبله؛ للاستئنافِ الابتدائيِّ المُنقطِعِ عمّا قبلَه؛ تحقيقًا للاستقلالِ في الكلام؛ ونظرًا لأهمّيَّة المقام والغرضِ من التَّمثيلِ بالقصَّة؛ إذِ الغَرضُ الإخبارُ بقِصَّةٍ تُشبِهُ قصَّةَ هؤلاءِ المُكذِّبين بالآيات؛ إذِ الدّافعُ للتَّكذيب الاغترارُ بالمالِ والبَنين، والدّافعُ في القصَّة - أيضًا - الاغترارُ بالجنَّة ونعيمِها، فالاستئنافُ ناظِرٌ إلى سببِ التَّكذيب بالآيات، وهو قولُه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، فهي نعمةٌ

عظيمة، وأصحابُ الجنَّة يمتلكونَ جنَّةً جميلة، فالنَّعيمُ المؤقَّتُ الزّائلُ والاغترارُ به سببٌ للتَّكذيب وللمَحْقِ معًا، قال ابنُ عاشور: "والجُملَةُ مُسْتَأنَفَةٌ استِئْنافًا ابتدائيًّا دَعَتْ إليه مُناسَبَةُ قَوْلِه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، فَإنَّ الازْدِهاءَ والغُرورَ بِسَعَةِ الرِّزقِ المُفْضِيَيْنِ إلى الاستِخْفافِ بِدَعْوَةِ الحَقِّ وإهْمالِ النَّظَرِ في كُنْهِها ودَلائِلِها، قَدْ أوْقَعا مِنْ قَديمِ الزَّمانِ أصْحابَهُما في بَطَرِ النِّعْمَةِ وإهْمالِ الشُّكْرِ، فَجَرَّ ذَلِكَ عَلَيْهِم شَرَّ العَواقِبِ، فَضَرَبَ اللّه لِلْمُشْرِكينَ مَثَلًا بِحالِ أصْحابِ هَذِهِ الجَنَّةِ؛ لَعَلَّهُمْ يَسْتَفيقونَ مِنْ غَفْلَتِهِمْ وغُرورِهِمْ"[1].

دلالةُ (إنَّ) في ﴿إِنَّا﴾ والغرضُ منها:

تحقيقُ الكلام دَعْـوةٌ لمَزيـدِ الاهتمام

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّة، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقيقِ النِّسبة الكلاميَّة، وتأكيدِ وقوعِها في الأذهان، دفعًا لأيِّ شكٍّ أوْ إنكارٍ في وقوعِ ذلك الابتلاءِ والامتحان؛ كما يُحقِّقُ التَّوكيدُ اهتمامًا بالمعنى المُرادِ إثباتُهُ؛ إذ لا يُؤكَّدُ إلّا المُهتَمُّ به؛ إثارةً للأذهانِ وإصغاءً للأسماع.

دلالةُ التَّعبير بـ(نا) العَظمةِ في ﴿إِنَّا﴾ مُقدَّمًا:

تعظيمُ الذّاتِ الإلَهيَّة تعظيمٌ لأفعالِها الجَليَّة

عبَّرَ النَّظمُ بضميرِ المتكلِّمين (نا)، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الذّاتِ الإلَهيَّة الواحدة في الحقيقةِ العَظيمةِ في الكمالات، وتعظيمُ الذّات يُنبِئُ عن تعظيمِ ذلك الفعلِ المُسنَدِ إليه، فيكونُ الامتحانُ الإلَهيُّ مُختلفًا عن كلِّ امتحانٍ في صورتِه ومَضمونِه، وقدَّمَ النَّظمُ المسندَ إليه؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والانحصار؛ ردًّا على ما يَعتقِدُهُ المُشركونَ من تأثيرِ آلهتهم، فينحصرُ الابتلاءُ والاختبارُ باللّه تعالى لا يتعدَّى إلى غيرِه؛ إذ لا فاعلَ إلّا اللّهُ تعالى.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن فعلِ (البَلْو) ماضيًا، في قولِه تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ ذلك البلاءِ والاختبارِ، وصُدورِهِ على سبيلِ القَطعِ بالحُصول، ممّا يُفيدُ تقويةً لحصولِ تلك النِّسبة، وتحقيقًا لوقوعِها، ويَدلُّ الفعلُ بمادَّتِهِ على الاختبارِ والامتحان، وكلُّ امتحانٍ بلاءٌ، لكنَّ هذا الامتحانَ يُؤدّي إلى سَعادةٍ دُنيويَّة وسَعادةٍ أُخرويَّة، وقد يُؤدّي إلى تَعاسةٍ في الدُّنيا والآخرةِ معًا.

بعدَ الامتحانِ يُكرَمُ المرءُ أوْ يُهان

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾:

استعارَ النَّظمُ الكريم فعلَ (البَلْوِ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾؛ للدَّلالة على الاختبارِ والامتحان بالنِّعَم؛ سواءٌ كانت أموالًا وبنينَ أم جنَّةً نَضيرة، بجامعِ وجودِ الصُّعوبة والشِّدَّةِ في كلٍّ، ثمَّ حَذفَ المُشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، وفي تسميةِ الاختبارِ والامتحانِ بلاءً وشدَّةً تنبيهٌ إلى ما يجبُ على المكلَّف منَ الاستعدادِ له، حتّى يخوضَ ذلك الابتلاءَ وتلك الفتنةَ، وينجَحَ في تخطّيها، والنَّظمُ الكريمُ يَلْفِتُ الانتباهَ إلى أنَّ البلاءَ كما يكونُ بالنِّقَم يكونُ بالنِّعَم، وأنَّ النِّعَم المُتلفةَ أكثرُ من النِّقَم.

الاختبارُ ابتلاء والصَّبرُ هو الدَّواء

وجعلَها ابنُ عاشور من الاستعارةِ التَّمثيليَّة بقوله: "البَلْوى هُنا تَمثيلٌ بِحالِ المُبْتَلَى في إرْخاءِ الحبْلِ لَهُ بِالنِّعْمَةِ؛ ليَشْكُرَ، أوْ يَكْفُرَ، فالبَلْوَى المَذْكورَةُ هُنا بَلْوَى بِالخَيْرِ، فَإنَّ اللهَ أمَدَّ أهْلَ مَكَّةَ بِنِعْمَةِ الأمْنِ، ونِعْمَةِ الرِّزْقِ، وجَعَلَ الرِّزْقَ يَأْتيهِم مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، ويَسَّرَ لَهُمْ سُبُلَ التِّجارَةِ في الآفاقِ بِنِعْمَةِ الإيلافِ بِرِحْلَةِ الشِّتاءِ ورِحْلَةِ الصَّيْفِ، فَلَمّا أكْمَلَ لَهُمُ النِّعْمَةَ بِإرْسالِ رَسولٍ مِنْهُم؛ ليُكْمِلَ لَهُمْ صَلاحَ أحْوالِهِم، ويَهْدِيَهُمْ إلى ما فيهِ النَّعيمُ الدّائِمُ، فَدَعاهُم، وذَكَّرَهُمْ بِنِعَمِ اللهِ؛ أعرضوا، وطغَوا، ولَم يَتَوَجَّهوا إلَى النَّظَرِ في النِّعَمِ السّالِفَةِ، ولا في النِّعْمَةِ الكامِلَةِ الَّتي أكْمَلَتْ لَهُمُ النِّعَمَ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.

دلالتا الإخبارِ بالجُملتينِ الاسميَّةِ والفعليَّة:

ثبوتُ تلك السُّنَّة وكيفيَّةُ مواجهةِ المِحنَة

جاء خبر (إنَّ) جملةً فعليَّةً؛ للدَّلالة على صُدورِ ذلك الفعلِ على سبيلِ الحُدوث، وجاءت الجملةُ الكبرى اسميَّةً؛ لتُفيدَ ثبوتَ ذلك الامتحانِ على سبيلِ الاستقرار، في حين أنَّ الجملةَ الفعليَّة تدلُّ على حدوثِهِ وتجدُّدِهِ في كلِّ وقتٍ وحالٍ.

مَرجِعُ ضميرِ الغائبِ (هُم) في ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾:

الازدراءُ بالمُكذِّبين لازدرائِهِمُ الحقَّ المُبين

عبَّرَ النَّظمُ بضميرِ الجمعِ الغائبِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أهلِ مكَّةَ والمُكذِّبين منهم على سبيلِ الخُصوص، الَّذينَ جاءَهم الخيرُ، ومَدَّهم اللهُ تعالى بالأموالِ والبنين، لكنَّهم بدلًا من أنْ يَفهَموا اختبارَ النِّعمة؛ كذَّبوا بالآيات، وجَحَدوا المُنعِمَ الحقيقيَّ، فالضَّميرُ راجعٌ إلى ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ الَّذين استندوا في تكذيبِهم على الأموالِ والبنين، وعبَّرَ عنهم بضميرِ الغَيبة دون ضميرِ المُخاطَب؛ ازدراءً بوجودِهِم وتَقليلًا لشأنِهم.

حذْفُ مُتعلَّقِ الابتلاءِ في ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾:

الابتلاءُ بالنِّعَم أصعَبُ مِنَ الابتلاءِ بالنِّقَم

حذفَ النَّظمُ متعلَّقَ الفعلِ ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ ليُفيدَ عمومَ البَلوى، ومن المُفسِّرين مَن نظرَ إلى مآلِ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، الَّتي احترقَتْ، وصارَتْ أثرًا بعد عين، "قالَ المُفسِّرون: بَلَوْنا أهلَ مكَّة بالجوعِ والقَحط، كما ابتلَينا أصحابَ الجنَّةِ بالجوعِ حينَ هلكَتْ جنانُهم"[1]، فكانَ الابتلاءُ والاختبارُ لهم في جنَّتِهم تهديدًا ورَدْعًا لهم؛ حتّى يَرجِعوا إلى الإنفاقِ والكرم في سبيل الله، ومن ثَمَّ حدَّدَ متعلَّق الابتلاءِ لأهلِ مكَّةَ بـ(الجَدْبِ والقَحْط)، حتَّى يَصبِروا، ويَرجِعوا إلى طاعةِ الرَّسول ﷺ وعدمِ تكذيبِهِ، ويحتمل أنَّ الاختبارَ والابتلاءَ بما هُم عليه من نِعَمٍ وفيرةٍ، سواءٌ لمُكذِّبي أهلِ مكَّةَ من أصحابِ الأموالِ والبنينَ، أوْ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 95.

للمُكذِّبين من أصحابِ الجنَّةِ المَليئةِ بالثِّمارِ، فقادَتْهُما النِّعمةُ إلى بطَرِ الحقِّ والتَّكذيبِ، قال الرّازيُّ: "كَلَّفْنا هَؤُلاءِ أن يَشْكُروا على النِّعَمِ، كَما كَلَّفْنا أصْحابَ الجَنَّةِ ذاتِ الثِّمارِ أن يَشكُروا، ويُعْطوا الفُقَراءَ حُقوقَهُم"[1]، والابتلاءُ كما يتحقَّقُ بالنِّقَمِ؛ فإنَّ تحقُّقَه بالنِّعَمِ أوْلى، وهو المُناسِبُ لسياقِ النَّظْمِ، ولذا جعلَ أصحابُ القولِ الأوَّلِ هذا الكلامَ مُرتَّبًا "على محذوفٍ، تقديرُه: أعطَينا أهلَ مكَّة الأموالَ؛ ليَشكروا، لا ليَبْطَروا، فلمّا بطَروا؛ ابتليناهُم بالجوعِ والقحطِ"[2]، ثمَّ ضُرِبَ لهم المثلُ بأصحابِ الجنَّةِ وابتلائِهم بجَنَّتِهم، وأجازَ الماتريديُّ الوجهين[3].

الموقعُ الإعرابيُّ لمحلِّ الجارِّ والمجرور في ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾:

أوقعَ النَّظمُ الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ﴾؛ في محلِّ النَّصب نائبًا عن المفعولِ المطلق، ودالًّا عليه دلالةَ الصِّفةِ على الموصوف[4]، والتَّقديرُ: (بلوناهم بلاءً مثلَ بلاء...)، وفائدةُ الوصفِ التَّقييدُ للموصوفِ بكونِه مُشابهًا لبلاءٍ سابقٍ في طبيعتِه ودَوافعِه ونَتائجِه، فالمماثلةُ بين البَلائين دعوةُ تثبيتٍ لغيرِ المُكذِّبين، وعظةٌ لمَن اتَّخذ التَّكذيبَ طريقًا لرَدْعِه عن مَسعاهُ الأثيم، "قال مقاتل: وهذا مثلٌ ضربَهُ اللهُ لكفّار مكَّة؛ ليَعتبروا، فيَرجِعوا"[5]، وفي تقييدِ البلاءِ بالبلاءِ دلالةٌ على تحقُّقِ البلاء، كما تحقَّق ذلك البلاءُ السّابق عليه، ودلالةٌ على تواصُلِ الابتلاءات والفِتَنِ ما كانت الحياةُ، واستمرَّت.

تقييدُ البَلاء بالبلاء دَعوةٌ لِلُّجوءِ إلى ربِّ الأرضِ والسَّماء

نوعُ التَّشبيهِ ودلالتُهُ في ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾:

شبَّهَ النَّظمُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ﴾ اختبارَ أهلِ مكَّة باختبارٍ وقعَ لأصحابِ الجنَّة، والغرضُ من

المالُ والبَنون والجِنان مُعرَّضةٌ للتَّلَفِ والخُسران

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 607.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 92.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 145.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 92.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 107.

التَّشبيهِ: بيانُ الابتلاءينِ ببيانِ جَرَيانِ سُنَّة الله في خَلْقِهِ؛ إذ تتكرَّرُ الامتحاناتُ والفتنُ بالنِّعَم والنِّقَم؛ ليَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيِّب، فالمُشبَّهُ هو البلاءُ والامتحان الَّذي نزلَ بالمُكذِّبين من أهل مكَّةَ، الذينَ فُتنوا بأموالِهم وأولادِهم، وغرَّتْهم الحياةُ الدُّنيا، والمُشبَّه به البلاءُ والامتحانُ الَّذي نزلَ بأصحابِ الجنَّة، الَّذين غرَّتْهُم الأموالُ والثِّمار، وكلٌّ من الطَّرفينِ قد حصَلَ على النِّعمة من دون جَهْدٍ، فالأموالُ والبنونَ نعمةٌ من الله تعالى، كما حصلَتِ الجنَّةُ لأصحابِها إرثًا من أبيهم ونعمةً منه تعالى، لكنَّهما جَحَدا المنعمَ الحقيقيَّ، فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ من مجموعِ حالاتٍ تشتركُ بين الطَّرفين في الأسباب والدَّوافع، والنَّتائجِ وطبيعةِ الابتلاء، قال ابن عاشور: "ووَجْهُ المُشابَهَةِ بَيْنَ حالِهم وحالِ أصْحابِ الجَنَّةِ المَذْكورَةِ هُنا هوَ (الإعْراضُ عَنْ طَلَبِ مَرْضاةِ الله وعَنْ شُكْرِ نِعْمَتِهِ)، وهَذا التَّمْثيلُ تَعْريضٌ بِالتَّهْديدِ بِأنْ يَلْحَقَهُمْ ما لَحِقَ أصْحابَ الجَنَّةِ مِنَ البُؤْسِ بَعْدَ النَّعيمِ، والقَحْطِ بَعْدَ الخِصْبِ، وإنِ اخْتَلَفَ السَّبَبُ في نَوْعِهِ؛ فَقَدِ اتَّحَدَ جِنْسُهُ، وقَدْ حَصَلَ ذلِكَ بَعْدَ سِنينَ؛ إذْ أخَذَهُمُ اللهُ بِسَبْعِ سِنينَ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ إلَى المَدينَةِ"[1].

دلالةُ (ما) في ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾:

يَقوى التَّشبيهُ ويتأنَّقُ كلَّما تَقْوَى العَلاقاتُ وتتعمَّق

تحتملُ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ المصدريَّةَ، فيكونُ من تشبيهِ البَلاء بالبلاء، وتشبيهِ المصدرِ بالمصدرِ، وهو يفيدُ أنَّ الحدثَ النّازلَ بالمُشبَّهِ مُشابِهٌ للحَدَثِ النّازلِ بالمُشبَّه به، فهو من تشبيهِ حالةٍ بحالةٍ أُخرى، وتحتملُ الموصوليَّةَ، فيحتاجُ إلى تقديرِ متعلِّقٍ للفعل الواقعِ في طرفِ المشبَّه، والتَّقديرُ: (بلوناهم بالنِّعمة كالنِّعمة الَّتي بلونا بها أصحابَ الجنَّة، ولا يبعدُ أنَّ النَّظمَ عبَّر بـ(ما)؛ للدَّلالة على الاحتمالين؛ لأنَّ التَّشبيهَ تقويةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.

للعلاقةِ بينَ الطَّرفين، وكلَّما وُجدتْ علاقاتٌ تدمجُ بين الحالتين؛ قَوِيَ التَّشبيهُ، وتعمَّقتْ حالةُ المُشابهة، فيكونُ التَّشبيه في طبيعةِ البَلاء وفي النِّعمة التي ابتُلوا، واختُبِروا بها معًا.

دلالةُ تكرارِ الفعلِ ﴿بَلَوْنَٰٓ﴾:

التَّكرُّرُ اللَّفظيُّ مناسِبٌ للتَّكرُّرِ الوقوعيِّ

كرَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ فعلِ (البَلْوِ)، في قولِه تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ سُنَّة الله في خَلْقِه دوامُ الابتلاءِ بالنِّعَم والمِحَن، وأنَّ المكلَّف خاضعٌ لسلسلةِ ابتلاءاتٍ وتكليفات، والابتلاءُ المُتكرِّرُ وقوعًا؛ ناسَبَهُ تكرُّرُه لفظًا، وكان التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ الَّذي لا يَنبغي أنْ يُشَكَّ في صدوره وما ترتَّبَ عليه من نتائجَ ونِهايات.

دلالةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿أَصْحَٰبَ﴾:

تـحـوُّلُ المـالِـك إلى تـابعٍ ذَليلٍ مُتهالِك

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المُبتَلينَ بلفظِ ﴿أَصْحَٰبَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، والصُّحبةُ دليلُ المُلازمةِ الشَّديدةِ والتَّعلُّقِ الكبير بالمُصاحَب، ممّا يُنبِئُ عنِ افتتانٍ بتلك النِّعمة حتّى صاحَبوها، والتصقوا بها، فكانوا أتباعًا للمالِ خاضعينَ له، فقد استعارَ النَّظمُ لفظَ (الأصحاب)؛ للمالكينَ بجامعِ أنَّ المالكَ لشيءٍ يُصاحِبُ ذلك الشَّيءَ، ويَرتبِطُ به، ثمَّ حذفَ المُلّاكَ، وأبقى الأصحابَ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ منَ الاستعارةِ تحويلُهُم مِن مُلّاكٍ إلى أصحابٍ وتابعينَ للمال، وتحويلُهم من مُلّاك إلى مُحبّين للمَصحوب مُنقادينَ له.

دلالةُ المُضافِ إليه ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾:

تـحـديـدُ الفتنةِ بيانٌ لمحلِّ المِحنة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المضافِ إليه بلفظِ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ للدَّلالة على تحديدِ النِّعمة الَّتي ابتُلوا بها، فكانتْ سببًا للفتنة والعذاب بدلًا من أن تكونَ سببًا للرَّحمة والسَّعادة، ولذا لم يَذكُرِ النَّظمُ أسماءَ أصحابِ القِصَّة أوْ قوميَّتَهم

أوْ بلدَهم، بل اقتصرَ على ذِكرِ المُبتلينَ ومحلِّ الابتلاءِ؛ إذِ العِبرةُ من التَّشبيه بيانُ أثرِ النِّعَم على الجُحود للمُنعِم، بدلًا من الشُّكر له والتَّصديقِ به، ولفظُ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ يدلُّ على السَّتر والتَّغطية، وكأنَّها من كثافةِ أشجارها وكثرةِ أغصانِها مستورةٌ لا يُرى ما في داخلِها، كما يوحي لفظُ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ بالهناءةِ والسُّرور والنِّعمة والدَّعَة والجمال، ومع كلِّ تلك الكثرةِ بَخِلوا، وشَحّوا، ولم يفعلوا ما يَنبغي عليهم من شُكرِ المُنعِم تعالى عليهم، كما اغترَّ أهلُ مكَّةَ بالمالِ والبنينَ، فجَحَدوا المُنعمَ الحقيقيَّ، وكذَّبوا بالآيات.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

تحويلُ الجنَّة إلى ذاتٍ لها أصحابٌ، إشارةٌ لتمكُّنِها من عقولِهم بكلِّ الأسباب

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الأصحاب)، إلى لفظِ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، في قوله تعالى: ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ للدَّلالة على تَعيينهم بإضافتِهم إلى الجنَّة؛ إذ يكتسبُ المضاف من المضاف إليه التَّعيينَ؛ إنْ كانَ معرفةً كما هنا[1]، والغرضُ من الإضافة بيانُ مالكيَّتهم للجنَّة؛ إذِ الإضافةُ لاميَّة، وتُشعِر بعلاقةِ المالك بالمملوكِ الَّذي تحوَّلَ إلى مُسيطِرٍ عليهم مُؤثِّرٍ فيهم، مع أنَّه لا يعدو أنْ يكون وسيلةً بينَ أيديهم، ولا يَبعُدُ أنْ يكونَ في إضافةِ الأصحاب إلى الجنَّة إشارةٌ إلى استعارةٍ مكنيَّةٍ بتشبيهِ الجنَّة بذاتٍ عاقلةٍ أمينةٍ قائدةٍ، تجمَّعَ حولَها أصحابٌ، وأُضيفوا إليها؛ ليكون المضافُ قرينةً على المَكنيَّة وتَخييلًا.

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ والغرضُ مِنها:

الابتلاءُ بالتَّنفيذِ لا بالتَّخطيط

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿إِذۡ﴾ الظَّرفيَّة الماضية، في قولِهِ تعالى: ﴿بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحديدِ زمنِ بَلواهم واختبارِهم، فهي مُتعلِّقةٌ بجملةِ ﴿بَلَوۡنَآ﴾[2]، والغرضُ من رَبطِ وقتِ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 663.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 93.

الإقسامِ على المَعصيةِ بالبلاءِ تحديدُ بدايةِ الاختبارِ بأوَّلِ أعمالِ المَعصيةِ؛ إذ أقسموا على تنفيذِ مُخطَّطِهم، فابتدأ وقتُ الاختبارِ حينَئذٍ، ونبَّهَ القونويُّ بقوله: "والمُرادُ وقتٌ متَّسِعٌ شاملٌ لوقتِ القَسَمِ ووقتِ هلاكِ البُستان، ولو جعل ﴿إِذْ﴾ للتَّعليل؛ [لَسَلِم] من التَّمحُّل"[1]، إلى أنَّ زمنَ البلاءِ ممتدٌّ وطويلٌ، فلا بدَّ من توسيعِ دلالة ﴿إِذْ﴾، حتّى تشملَ طولَ حدثِ الابتلاء، ورأى أنَّ حمْلَها على (التَّعليليَّة) أوْلى لذلك، والتَّقديرُ: (لأجلِ أنَّهم أقسَموا؛ بَلَوناهُم).

دلالةُ الفعلِ ﴿أَقْسَمُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإصـــرار على تنفيذِ الجُرمِ الجبّار

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي المَزيدِ على الثُّلاثيِّ بالهمزةِ (أقسمَ)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ للدَّلالة على صُدورِ القَسَمِ منهم على سبيلِ القطعِ والتَّحقُّقِ، وأنَّه وقعَ منهم بشكلٍ لا شكَّ فيه، وتدلُّ مادَّةُ (القَسَم) على اليمينِ الصّادقةِ والعَزْمِ المُؤكَّدِ؛ إذ يغلبُ استعمالُ فعلِ القَسَمِ عند إرادةِ الصِّدقِ باليمينِ وإنجازِها على صعيدِ الفعلِ والواقعِ، كما أفادَتْ صيغةُ (أفعلَ) على الإيجادِ للقَسَمِ وإنشائِهِ بكلِّ نيَّةٍ وإصرارٍ، فهُم لم يَكتفوا بعَمَلِ الجريمةِ والإقدامِ على الباطلِ، بل أقسَموا على تنفيذِهِ وتبييتِهِ، حتَّى لا يَتراجَعوا عن تَنفيذِهِ.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجمعِ في ﴿أَقْسَمُواْ﴾:

المَعصيةُ الإجماعيَّة صورةُ إصرارٍ واقعيَّة

أسندَ النَّظمُ الكريم الفعلَ (أقسمَ) إلى (واو) الجماعةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ للدَّلالةِ على صُدورِ القَسَمِ منهم على سبيلِ الإجماعِ أوِ الأغلبيَّة، فإمّا أنَّ أوسَطَهم قد مانعَهُم، إلّا أنَّه شاركَهم في القَسَمِ في نهايةِ المَطاف، أو لم يُقْسِمْ معَهم على التَّنفيذِ، قال ابنُ عاشور: "ولَعَلَّهُم أقسَموا؛ ليُلزِموا أنْفُسَهُم بِتَنفيذِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 232.

ما تَداعَوا إلَيهِ، وهَذا يَقْتَضي أنَّ بَعْضَهُم كانَ مُتَرَدِّدًا في موافَقَتِهِم على ما عَزَموا عليه، وأنَّهُم أجْمَعوهُ بالقَسَم، وهذا الَّذي يَلْتَئِمُ مع قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، ولَعَلَّهُم أقْسَموا على أن يَفْعَلوا، وأقْسَموا عليه أن يَفْعَلَ مَعَهُمْ ذَلِكَ، فَأقْسَمَ مَعَهُم، أو وافَقَهُمْ على ما أقْسَموا عليه، ولهذا الاعْتِبارِ أُسْنِدَ القَسَمُ إلى جَميعِ أصْحابِ الجَنَّة"[1].

سرُّ الإضافةِ في ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾:

القَسَمُ على الجَريمة جُرأةٌ شنيعة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الظَّرف ﴿إِذْ﴾ للجملةِ ﴿أَقْسَمُوا﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ للدَّلالةِ على تحديدِ الزَّمن وتعيينِهِ؛ إذِ الزَّمنُ الَّذي تدلُّ عليه ﴿إِذْ﴾ للماضي المُبهَم، ويتعيَّنُ بإضافتِهِ إلى فعلٍ وقعَ في الماضي، فيكونُ الزَّمنُ الماضي مُتحقِّقًا في صورةِ إقسامِهم على التَّنفيذِ لما عزَموا على فعلِهِ، وفيه إشارةٌ إلى تقبيحِ الجُرمِ مع حالةِ العَزمِ والقَسَمِ على التَّنفيذ؛ لما فيه من الجُرأةِ على الباطِلِ.

حذْفُ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿أَقْسَمُوا﴾:

صيانةُ الاسمِ الجليلِ عنِ الفعلِ غيرِ النَّبيل

حذفَ النَّظمُ الكريم مُتعلَّقَ الفعلِ ﴿أَقْسَمُوا﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ إمّا للدَّلالة على أنَّهم أقسَموا بغيرِ (اللّه)، بقرينةِ قولِ أوسطِهم: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، الدّالِّ على وقوعِهم في الشِّرك، فيكونونَ قد أقسَموا بآلهةٍ باطلةٍ لا يَنبغي ذِكرُها، وإمّا أنَّهم أقسَموا باللّهِ مع شِركِهم به أيضًا، وحُذِفَ للعِلْمِ به وللصّيانةِ له عنِ المُقارنةِ للفعلِ القَبيح، وعلى كِلا الاعتبارينِ فإنَّ القَسَمَ على التَّنفيذِ باللّه تعالى أو بغيرِهِ، دالٌّ على شِدَّةِ الإصرارِ على التَّنفيذِ للجُرم.

دلالةُ (اللّام) في ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ والغرضُ منها:

التَّوكيدُ والمُبالغة يُفيدانِ الإقدامَ بلا مُمانعة

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(اللّام) في قولِهِ تعالى: ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّوكيدِ والتَّحقيق، فهي اللّام الواقعةُ في جوابِ القَسَم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 80.

المُنبئةُ بدُخولِها على توكيدِ المُقسَمِ عليهِ؛ تأكيدًا غيرَ قابلٍ للتَّراجُعِ عنِ التَّنفيذِ لهُ.

دلالةُ الفعلِ المُضارع (يَصرِمُ) مادَّةً وصيغةً:

القطعُ للأثمار على سبيلِ الاستمرار

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارعِ (يَصرِمُ)، في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ فعلِ الصَّرم على سبيلِ الاستمرار، حتّى لا يدعوا شيئًا معلَّقًا للفقراء، وتشتركُ المادَّةُ معَ الصّيغة في الدَّلالةِ على القطعِ للثِّمار قطعًا يُشبهُ الكمالَ معَ الخَزْنِ لهُ، قال البقاعيُّ: "عبَّر بهِ عن (الجذاذ) بدلالته على القطعِ البائنِ المَعزوم عليه، المُستأصِلِ المانعِ للفقراءِ؛ ليكونَ قَطْعًا مِن كلِّ وجهٍ"[1]، بخلافِ (القطع) فإنَّه يُفيدُ القطعَ من دونِ إفناءٍ للمقطوعِ بحيثُ يبقى قِسْمٌ منه ينتفعُ به الآخرون دونَ خَزْنٍ.

دلالةُ الإسنادِ إلى الفاعلِ في (يَصرِمُنَّها):

العملُ بالاتِّفاق بعدَ القَسَمِ الإجماعيِّ بالإطلاق

أسندَ النَّظمُ الكريم الفعلَ المُضارعَ إلى ضميرِ الجَمع (الواو)، الَّتي تدلُّ عليها الضَّمَّة بعدَ حذفِها لالتقاءِ السّاكِنَين في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على حُدوثِ الصَّرم للثِّمار بشكلٍ جماعيٍّ من عُمّالِ أصحابِ الجنَّة، والعملُ الجماعيُّ دالٌّ على اتِّفاقٍ وتواطُؤٍ منهم على التَّنفيذِ بكلِّ إقدامٍ.

مَرجِعُ الضَّميرِ الغائبِ في (يَصرِمُنَّها):

مِن شدَّةِ الإصرام تغدو الجنَّةُ بلا قَوام

علَّقَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الصَّرم بضميرِ الغَيبةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾، العائدِ إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ دونَ الثِّمارِ فحَسب، ولمّا كانَ الصَّرمُ مختصًّا بالثِّمارِ، وتسلَّط على الجنَّةِ بتقنيَّةِ مَجازِ الحَذْفِ، فلم يقُلْ: (ليَصْرِمُنَّ أثمارَ الجنَّة)؛ عُلِمَ أنَّ الصَّرمَ من شدَّةِ تعلُّقِه بالأثمارِ حتّى تَبدوَ الجنَّةُ قد صُرِمَتْ بالكلّيَّة، فلم يبقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 307.

منها شيءٌ، وفي ذلك كشفٌ عن نيَّتِهم عدمَ إعطاءِ أيِّ شيءٍ منها للفُقراء والمُستحقّينَ بُخلًا منهم وكُفرًا بأوامرِ المُنعِم الحقِّ.

دلالةُ العُدولِ أوِ الالتفاتِ في ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾:

الصِّرامُ هو مَحْطُّ الاهتمام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ العُدولِ أوِ الالتفاتِ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ فقدِ التفتَ النَّظمُ من ضميرِ المُتكلِّم في (لَنَصۡرِمُنَّها) إلى ضمير الغَيبة في ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ والغرضُ من ذلك الالتفاتِ أوِ العُدولِ التَّركيزُ على فعلِ الصَّرم دونَ الاهتمامِ بالصّارمِ له، وليُفيدَ أنَّ الصّارم هُمُ العَمَلةُ الَّذين في الجنَّة، فالواوُ حينَئذٍ راجعةٌ إلى العمّال.

دلالةُ ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ ومَوقِعُهُ الإعرابيُّ:

تحديدُ حالةِ الصِّرام يُفيدُ التَّخطيطَ بكلِّ انتِظام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالحالِ[1] في قوله تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ الصَّرم باللَّيلِ؛ ليَنتهيَ الصِّرمُ في حالةِ الإصباحِ والدُّخولِ في وقتِ أوَّلِ النَّهار، قال أبو السُّعود: "ليقطَعُنَّها داخلينَ في الصَّباحِ"[2]، مع بيانِ هَيئتِهم المُتلبِّسة بمقارنةِ أوَّلِ ضَوءِ النَّهار؛ ظَنًّا منهم أنَّهم يَسبقونَ الفُقراءَ بالحضورِ قبلَهم، فيَنتهونَ من العملِ ليلًا، وقد بدأ الصَّباحُ مُسرعينَ قبلَ مَجيءِ الفقراءِ إليهم، وفي تحديدِ حالِ الإصباح لانتهاءِ تلبُّسِهم بالصَّرم إشارةٌ منهم إلى التَّخطيطِ الدَّقيق معَ العَزمِ على التَّنفيذِ ليلًا بكلِّ دِقَّةٍ وإتقان.

سرُّ الوَصلِ بـ(الواو) في ﴿وَلَا﴾:

توكيدُ الصَّرم بالقَطْعِ بلا عقلٍ ولا فَهْم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواوِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا:

على العطفِ على ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ بناءً على أنَّ مَعنى ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 93.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 14.

لا يَتركونَ، ولا يُبقونَ شيئًا للفقراء، فيكونُ من عطفِ الجملةِ الفعليَّة المضارعيَّة المنفيَّة على الجُملةِ الفعليَّةِ المضارعيَّة المُثبتةِ الواقعةِ في جوابِ القَسَم، فتكون داخلةً تحتَ القَسَم أيضًا[1]؛ للدَّلالةِ على التَّوكيدِ لدلالةِ (الصَّرم) المُفيدِ للقطعِ للأثْمار بشكلٍ كبيرٍ، بحيثُ لا يبقَى منهُ إلّا الشَّيءُ القليل، والظّاهرُ أنَّ أباهُم كانَ يقطَعُ بعضَ الثِّمار، ويَتركُ بعضًا آخَرَ للفُقراء يَجذّونَهُ، ويَنتفعونَ به، فأكّدوا رَغبتَهُم بالقطعِ الكُلّيِّ من خلالِ فعلِ (الصَّرم)، والعطفِ بعدمِ تركِ شيءٍ يصلُحُ للقطعِ والجَذِّ بعدَهُم، فتكونُ وظيفةُ العطفِ توكيدَ القطعِ بشكلٍ تامٍّ معَ الاحتراسِ عن تَرْكِ شيءٍ حتّى القليلِ منهُ، قال ابنُ عاشور: "ومَعْنَى ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: أنَّهُم لا يَستَثْنونَ مِنَ الثَّمَرَةِ شَيْئًا لِلمَساكين، وهذا التَّعْميمُ مُسْتَفادٌ مِمّا في (الصَّرْم) مِن مَعنى الخَزْنِ والانْتِفاعِ بِالثَّمَرَة؛ وإلّا فَإنَّ الصَّرْمَ لا يُنافي إعْطاءَ شَيءٍ مِنَ المَجْذوذِ لِمَنْ يُريدونَ"[2]، وفائدةُ العُدولِ عن المضارعِ الاستحضارُ لحالةِ عدمِ التَّركِ لشيءٍ من الأشياء.

وإمّا للدَّلالةِ على الاستئناف، أو (الواوُ) للحالِ؛ وهما مبنيّانِ على أنَّ مَعْنى الاستثناءِ في ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ هو قولُهم: (إنْ شاء اللّه) بعدَ القَسَم، قال الهرريُّ: "ولعلَّ إيرادَ (الاستثناء) بعدَ إيرادِ إقسامِهم على فعلٍ مُضمرٍ لمقصودِهم، مُستنكَر عندَ أربابِ المروءة؛ لتقبيحِ شأنِهم بذكرِ السَّببينِ لحرمانهم، وإنْ كان أحدُهما كافيًا فيه، لكنْ ذِكرُ (الإقسام) على أمرٍ مُستنكَرٍ أوَّلًا، وجعلُ (تركِ الاستثناءِ) حالًا منه ثانيًا؛ يُفيدُ أصالتَهُ وقوَّتَه في اقتضاءِ الحِرمان"[3].

ويحتملُ أنَّ مَعنى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ منَ الثَّني: وهو الانعطافُ والصَّرف، يُريدونَ الشِّدَّةَ في نَظَرهم بعدمِ قَبولِ انعطافٍ وانصرافٍ في إجراءِ حُكمِهم في حُقوقِ الفقراء[4]، فيكون المعنى: ولا يَنثنونَ عن عَزمِهم، والسّينُ والتّاءُ للمُبالغة، والَّذي يترجَّحُ كونُ (الواو) للحال.

دلالةُ الإدماجِ في ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾:

أدمجَ النَّظمُ الكريم بيانَ حالهم عندَ إقسامِهم على الفعلِ القبيح، بقولِهِ تعالى:

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1533.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 93.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 6/ 243.

شِدَّةُ الغُرور تُفيدُ التَّبجُّحَ والنُّفور

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾؛ بناءً على أنَّ (الواو) للحال، وأنَّ مَعنى (الاستثناءِ) هو قولُهم: إنْ شاءَ اللّه، وحينَئذٍ يكونُ الفعلُ المضارعُ ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾ لاستحضارِ حالِهم العَجيبة، ولذا لم يقُل: (وما استثنوا)، نبَّهَ إلى ذلك ابنُ عاشور بقوله: "وعلى هذا التَّفسيرِ يَكونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ من قَبيلِ الإدْماجِ، أي: لِمَبْلَغِ غُرورِهم بِقوَّةِ أنْفُسِهم، صاروا إذا عَزَموا على فِعْلِ شَيءٍ لا يَتَوَقَّعونَ لَهُ عائِقًا، والجُمْلَةُ في مَوْضِعِ الحالِ، والتَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المُضارِعِ لاستحضار حالَتِهِمُ العَجيبَةِ من بُخْلِهم على الفُقَراءِ والأيتام"[1]، ولكنْ "يُضعِفُ كونَ (الواو) حاليَّةً من حيثُ إنَّ المضارعَ المنفيَّ بـ(لا) كالمُثْبَت في عدمِ دخولِ (الواو) عليه، وإلّا فبإضمارِ مُبتدأ قبلَهُ"[2].

دلالةُ (لا) والغرضُ منها:

نفيُ التَّرْكِ للقليلِ توكيدٌ للصَّرمِ الكثير

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(لا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على نفيِ الاستثناءِ والتَّركِ حالًا واستقبالًا، والغرضُ من النَّفي بيانُ أنَّ الصَّرمَ المتعلِّق بالكلِّ لا يُبقي، ولا يذَرُ، فهُم لا يَتركونَ شيئًا، ولو قليلًا للفقراءِ، والذي يظهرُ: أنَّ جملةَ النَّفي هي محطُّ الاهتمام؛ لأنَّ الصَّرم في الابتداءِ ليلًا، وفي الانتهاءِ وقتَ الصَّباح لا يُفيدُ عدمَ إعطاءِ الفقراء دلالةً قطعيَّةً، لكنَّ الَّذي يدلُّ على ذلك جملةُ النَّفي الَّتي نفتْ إبقاءَ شيءٍ لغيرِهم أوْ ترْكَهُ.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبوديَّةُ المالِ تُؤدّي إلى سوءِ المآل

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على عدمِ التَّرك، أي: يَصرِمونَ الأثمارَ، ولا يُبقونَ شيئًا منها، وإمّا أنَّهم عندَما أقسَموا على الصَّرم، لم يقولوا: (إن شاءَ اللّه) مُعلِّقينَ قسَمَهم وتنفيذَ مُخطَّطِهم على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 175.

المشيئةِ الإلهيَّة، "يقالُ: حلفَ فلانٌ يمينًا ليس فيها ثُنيا ولا ثُنوى ولا ثُنيةَ ولا مَثنويَّةَ ولا استثناءَ، كلُّه واحدٌ، وأصلُ هذا كلِّه من (الثَّني)، وهو الكفُّ والرَّدُّ، وذلك أنَّ الحالفَ إذا قالَ: (واللّه لأفعلَنَّ كذا إلّا أن يشاءَ اللّه غيرَهُ)، فقد ردَّ ما قالَهُ بمشيئةِ اللّه غيرَه"[1]، وعلَّل ابنُ عاشور تسميةَ التَّعليقِ بالمشيئةِ استثناءً بقوله: "إنَّ أصْلَ صيغَتِهِ فيها حَرْفُ الاستِثْناءِ، وهوَ (إلّا)، فَإذا اقْتَصَرَ أحَدٌ على (إنْ شاءَ اللّه) دونَ حَرْفِ الاستِثْناءِ أُطْلِقَ على قَوْلِهِ ذَلِكَ استِثْناءٌ؛ لِأنَّهُ عَلَى تَقديرِ: (إلّا أن يَشاءَ اللّه) عَلَى أنَّهُ لَمّا كانَ الشَّرطُ يُؤَوَّلُ إلَى مَعْنَى الاستِثْناءِ؛ أُطْلِقَ عَلَيهِ استِثْناءٌ؛ نَظَرًا إلى المَعْنَى وإلى مادَّة اشتِقاقِ الاستِثْناءِ"[2]، ولا يَخفى أنَّ تفسير (الاستثناء) بهذا فيه شيءٌ؛ لأنَّ مَن يُقدِمُ على هذا العملِ الشَّنيع لا يُعلِّقُ فعلَهُ بالمشيئةِ الإلهيَّة، ولو علَّقَها؛ لكانَ هازئًا مُتهكِّمًا، فلا يُحمَلُ النَّظمُ عليه، والفعلُ ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾ مزيدٌ بالسّينِ والتّاءِ؛ للدَّلالة على الطَّلب، أي: عندما يَصرِمونَ لا يَطلبونَ الثَّنيَ والإبقاءَ، فكأنَّ الإبقاءَ صارَ غيرَ مطلوبٍ لهم من شدَّةِ حرصِهم وشُحِّهم.

مَعنى (الفاءِ) والغرضُ منها في ﴿فَطَافَ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّة على ما قبلَها بـ(الفاء)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ المتَّصلِ بلا مُهلةٍ مع التَّسبُّب عنه، فيُنبئ الحرفُ عن مَعنى المُسارعةِ في الإهلاكِ بعدَ أن عَزَموا النّيَّة، وأقسَموا الأيمانَ المُغلَّظةَ على عدمِ التَّراجُعِ والانثناءِ عن المَعصية، وفي ذلك إشارةٌ إلى أثرِ العَزمِ على المعصية عَزْمًا قويًّا مُبالغًا في السَّعي إلى تحقيقِهِ في نُزول العقابِ وحُصول الجَزاء والنِّقمة، قال ابنُ عاشور: "وعُجِّلَ العِقابُ لَهُمْ قَبْلَ

العزمُ على العِصيان يَستدعي العقوبةَ لذلك الطُّغيان

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 97.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

التَّلَبُّس بِمَنْعِ الصَّدَقَةِ؛ لِأَنَّ عَزْمَهُمْ على المَنْعِ وتَقاسُمَهُم عليه حَقَّقَ أَنَّهُم مانِعونَ صَدَقاتِهِم، فَكانوا مانِعينَ، ويُؤْخَذُ مِنَ الآيَةِ مَوعِظَةٌ لِلَّذينِ لا يواسونَ بِأموالِهِم"[1].

دلالةُ الفعلِ الماضي (طافَ) مادَّةً وصيغةً:

الـدَّورانُ حـولَ البُستان إهلاكٌ مثلُ الطّوفان

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي (طافَ)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ على سبيلِ القَطْعِ بالحُصول، وأفادَتْ مادَّةُ الفعلِ دلالةَ الإحاطةِ بالجنَّة والدَّوران حولَها، وفُهِم منَ الدَّورانِ أنَّ العذاب اختصَّ بها دونَ بقيَّة الجنّات الَّتي من حَولها؛ ليكونَ العذابُ مَقصودًا بأهلِها، كما أنَّ فعلَ الطَّوف يُنبئُ عن الدَّورانِ والإحاطةِ بالشَّيءِ المُلتفِّ من حولِه؛ ليكونَ دالًّا على الإهلاكِ به إهلاكًا تامًّا، فلم يَذَرِ العذابُ الدّائرُ بالجنَّة منها شيئًا.

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾:

العـذابُ المُحدِق موجِعٌ ومؤرِّق

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ صورةَ مَن يطوفُ حولَ شيءٍ، ويمشي حولَه دائريًّا في قولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للعذابِ الَّذي نزلَ بالجنَّة، وأتى عليها، فقد شبَّه حالَ العَذاب النّازلِ المُحدقِ بالجنَّة، ويحيطُ به بذلك الطّائف الَّذي يدورُ حولَ الشَّيءِ، ويحيطُ به مِن جوانبِه كلِّها، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقَى المُشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّة، قال ابنُ عاشور: "وأُريدَ بِهِ هُنا تَمثيلَ حالَةِ الإصابَةِ لِشَيءٍ كُلِّهِ بِحالِ مَن يَطوفُ بِمَكانٍ"[2]، والغرضُ منَ الاستعارةِ إظهارُ صورةِ العَذابِ، وكأنَّه يَلتفُّ بالمكان، فلا يَتجاوزُهُ لغيره، ثمَّ يَقضي على جميعِ ما فيه، كما يُحيطُ الطّائفُ بالمكان مِن جميعِ جهاتِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

سرُّ العُدول في الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهَا﴾:

الإحاطةُ والدَّوران معَ الاستعلاءِ على المكان

عدَّى النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ الطَّواف بـ(على)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ دونَ (الباء)؛ للدَّلالة على التَّسلُّطِ ونُزولِ العذابِ من جهةِ الفَوق، معَ الدَّلالة على التَّمكُّنِ والإحاطة إحاطةَ المُستعلي بالمستعلَى عليه، قال ابنُ عاشور: "وَعُدّيَ (طافَ) بِحَرْفِ (عَلَى) لِتَضْمينِهِ مَعنَى: تَسَلَّطَ، أو نَزَلَ"[1]، فيكونُ العذابُ النّازل دائرًا بالشَّيءِ مُحيطًا ومُلتفًّا به ومُستعليًا عليه، قادِمًا من جهةٍ عُلويَّةٍ، ولذا قالَ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾، ولم يقل: (فطافَ بها).

دلالةُ الفاعلِ المُشتقِّ من لفظِ الفِعل ﴿طَآئِفٌ﴾:

تصويرُ المَجهول بِما يُقرِّبُهُ للعُقول

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن فاعلِ فعلِ الطَّواف بلفظٍ مشتقٍّ من الفعلِ (طافَ)، فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذابَ النّازلَ طافَ بالمكان؛ لأنَّ مِن شأنِه الطَّواف، قال القونويُّ: "ومعنى ﴿طَآئِفٌ﴾، أي: مِن شأنِهِ الطَّواف، بقرينةِ إسنادِ (طافَ)"[2]؛ لأنّا إذا قلنا: (قام قائمٌ، وركعَ راكعٌ)؛ فإنَّ الغرضَ من ذِكرِ الفاعلِ المأخوذِ من لفظِ الفعل الدَّلالةُ على أنَّ الَّذي أحدثَ الفعل من شأنِهِ صدورُ الفعلِ منه، فيكون فيه نوعُ توضيحٍ لطبيعةِ العذابِ النّازل المُعبَّر عنه بأنَّه ﴿طَآئِفٌ﴾ بالتَّنكير، فيُعلمُ مِن كونه طائفًا أنَّه نارٌ على شبهِ إعصارٍ يدورُ حولَ الشَّيءِ مُهلكًا له.

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في ﴿طَآئِفٌ﴾:

العذابُ الطّائف مُهلكٌ لجميعِ المالِ وتالِف

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (الطّائف)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ للعذابِ[3]، فيكونُ النَّظمُ قد شبَّه العذابَ بالطّائف بجامعِ أنَّ الطّائفَ يغلبُ استعمالُهُ في الشَّرِّ وفي الَّذي يطرقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 233.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 147.

ليلًا، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به، ويدلُّ عليه ما أصبحَتْ عليه الجنَّةُ من حالةِ الصَّريم، والغرضُ منَ الاستعارةِ توصيفُ ذلك العذابِ وبيانُ إحاطتِهِ بالجنَّةِ إحاطةً تامَّةً، بحيثُ لم يستثنِ منها شيئًا، كما عَزَموا على صَرْمِها من دونِ أن يَستثنوا شيئًا منها للفُقراء والمُعوِزين.

(الطّائفُ) بينَ الخصوصِ والعُموم:

مصائبُ اللَّيل عذابٌ ووَيل

أسندَ النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ الطَّواف إلى (الطّائف)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ بلاءٍ وأمرٍ طافَ بالجنَّة، فدمَّرَها، وجرى خلافٌ في عموم (الطّائف) وخُصوصِهِ، قالَ أبو حيّان: "قال الفَرّاءُ: والطّائفُ: الأمْرُ الَّذي يَأتي باللَّيْلِ، ورُدَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعراف: 201]، فَلَمْ يَتَخَصَّص باللَّيْلِ"(1)، أي: وذلك لا يختصُّ بليلٍ ولا نهارٍ(2)، وتظهرُ ثمرةُ الخلافِ أنَّه على العُموم، ويكونُ قوله: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ تَقْييدًا لِوَقْتِ الطّائِفِ، وعلى الخصوصِ يكونُ تَأْكيدًا لهُ، وفائِدَتُهُ تَصْويرُ الحالَةِ(3).

الفعلُ المَبْنيُّ للمَعلوم بمَنزلةِ المَجهول:

عَظَمَةُ الطّوفان هو الواعِظُ والمُذَكِّرُ للإنسان

أسندَ النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ المبنيَّ للمعلوم إلى الفاعلِ المشتقِّ من لفظِهِ، في قولِهِ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾؛ للدَّلالة على حُدوثِ الفعل ووقوعِهِ دونَ التَّنصيصِ على الفاعلِ بعينِهِ، فيكونُ بمنزلةِ الفعل المبنيِّ للمجهول، كما في قولِهِ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: 42]، قال ابنُ عاشور: "وَلَم يُعَيِّن جِنْسَ الطّائِفِ؛ لِظُهورِ أنَّهُ من جِنْسِ ما يُصيبُ الجَنّاتِ مِنَ الهَلاكِ، ولا يَتَعَلَّقُ غَرَضٌ بِتَعْيينِ نَوْعِهِ؛ لأنَّ العِبرَةَ في الحاصِلِ بِهِ، فَإسْنادُ فِعْلِ (طافَ) إلَى ﴿طَآئِفٌ﴾ بِمَنْزِلَةِ إسْنادِ الفِعْلِ المَبْنيِّ لِلمَجْهولِ، كَأنَّهُ قيلَ: فَطيفَ عَلَيها، وهُم نائِمونَ"(4).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 242.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 286.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

أسرارُ التَّنكيرِ في ﴿طَآئِفٌ﴾:

التَّدميرُ الخَفيُّ رعبٌ حقيقيٌّ

نكَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿طَآئِفٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم من شأنِ ذلك الطَّائف الغريبِ المجهولِ الأسباب، قال ابن عاشور: "وتَنْوينُ ﴿طَآئِفٌ﴾ لِلتَّعْظيم، أي: أمرٌ عظيمٌ، وقَدْ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾، فَهوَ طائِفٌ سوءٍ، قيلَ: أصابَها عُنُقٌ مِنْ نارٍ، فاحْتَرَقَتْ"[1]، كما أفادَ التَّنكيرُ إغماضًا مقصودًا للخطاب، والإغماضُ من مقاصِدِ البُلَغاء، إذ يتخيَّلُ الذِّهنُ عذابًا ونِقمةً مُحيطة لا تُدْرَكُ حقيقتُها، ولا يُتوصَّلُ إلى تحديدٍ شافٍ لطبيعتها، فيزدادُ خوفُهُ، ويعظُمُ وجَلُه من قُدرة اللّه تعالى الكاملةِ المُحيطة، وفي تنكيرِ الفاعلِ يكونُ التَّركيزُ على الحَدَثِ، وهو طَوَفانُ العذابِ بالجنَّة قصدَ تدميرها، فلا يكونُ ذِكرُ ماهيَّةِ الطَّائفِ مَقصودًا لذاته، بل المقصودُ هو الحَدَثُ الَّذي حصلَ بأمرٍ مجهولٍ لا تُدرَك حقيقتُهُ لخفاءِ سببِه، فكأنَّ التَّنكير يُشيرُ إلى أنَّ ذلك التَّدميرَ لا يُعرَفُ سببُهُ، ولا يُحاط بكُنهه؛ لما فيه من غرابةٍ أسفرَ عنها تنكيرُ الفاعل.

مَعنى حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

تـحـديـدُ جـهـةِ الـصُّـدور لبيانِ عَـظَـمـةِ الـمـصـدرِ المَذكور

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾، في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على الابتداء، أي: ابتدأ مجيءُ العذابِ من اللّه تعالى، فليسَ قدومُهُ من أحدٍ سِواه، ولا يُرادُ بالابتداءِ في مثل هذا التَّعبيرِ المكانُ حقيقةً، بل الإشارةُ إلى مصدريَّةِ ذلك العذابِ، وهو اللّهُ تعالى؛ تمييزًا لجهةِ الصُّدور لبيانِ عظمةِ ذلك العذابِ المذكور، قال ابن عاشور: "و﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: جائيًا مِن قِبَلِ رَبِّكَ، فَـ ﴿مِّن﴾ لِلابتِداءِ، يَعني: أنَّهُ عَذابٌ أُرْسِلَ إلَيْهِم، عِقابًا لَهُمْ على عَدَمِ شُكْرِ النِّعمَةِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ (الرَّبِّ):

الـرَّبُّ العظيم عقابُهُ للمُجرمينَ أليم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الرَّبِّ)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على السَّيطرةِ والقوَّة والعَظَمةِ؛ لما في لفظِ (الرَّبِّ) من السّيادةِ والتَّصرُّفِ المُطلَق التّامِّ، فناسَبَ ذِكرُهُ مقامَ الفعلِ المُحيط المُؤثِّر في الجنَّة التَّأثيرَ العَجيب.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّكَ﴾:

تخصيصُ النَّبيِّ ﷺ بالخطاب إكرامٌ لشأنِهِ

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المُخاطَب العائد إلى النَّبيِّ ﷺ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه المقصودُ بالتَّسليةِ ودَفْعِ الهَمِّ النّاجم عن تكذيبِهم للحقِّ، ولذا لم يقُلِ النَّظمُ: (من ربهم) أو (من ربكم)؛ للدَّلالة على أنَّ أربابَ هؤلاء لا يستطيعونَ فعلَ شيءٍ من ذلك، ومع ذلك هم يَعبدونَها من دون الله، ولذا خَصَّ النَّبيَّ ﷺ بالخطاب؛ إكرامًا لشأنِهِ، وإجلاءً لحقيقةِ ما يدعو له من الحقِّ، وأنَّ فعلَ ربِّهِ هو الفعلُ الحقيقيُّ، وأربابُهُم لا تفعَلُ شيئًا.

دلالةُ النَّعتِ بشبهِ الجُملة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

تمييزُ العَذاب كما مُيِّز ربُّ الأرباب

نعتَ النَّظمُ الكريم النَّكرةَ بشِبهِ الجُملة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لتحديدِ جهةِ صُدورِ ذلك الطّائف المجهولِ الغريب، أي: كائنًا من ربِّك وجائيًا منه ونازلًا من عندِهِ، وفي هذا النَّعت بيانٌ لغرابتِهِ وتعليلٌ لنَكارتِهِ؛ إذ أفعالُ الله تعالى لا تُضارِعُ شيئًا من أفعالِ مَخلوقاته، فيكونُ النَّعتُ مُشيرًا إلى فداحةِ ذلك التَّدميرِ الحاصلِ بذلك العذابِ، ولا يُستغربُ ذلك؛ لأنَّه من اللهِ تعالى.

دلالةُ (الواو) في ﴿وَهُمْ﴾:

عينُ الظّالم تنامُ وعينُ الله لا تغفَلُ ولا تنام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على مَعنى الحال؛ ووظيفةُ الحالِ تقييدُ فعلِ الطَّوَفان بوقتِ

نومِهم، مع بيانِ هَيئتِهم عندَ نزولِ العذاب؛ لبيانِ مَدى غَفلتِهم عن عظيمِ فعلِ اللّه؛ إذ ظنّوا بتصميمِهم أنَّهم غالبون، وغَفَلوا عن عَجزِهم وقُصورِهم؛ إذ نزلَ العذابُ بهم، وهُم لا يَدرونَ أصلًا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ عين الظّالمِ تنامُ، وعينُ اللّه تعالى لا تغفلُ، ولا تنامُ.

دلالة الضَّمير (هُم):

سَخافةُ الإدراك تُؤدّي إلى الغَبْنَة والإبعاد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الضَّمير (هُم)، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الذَّوات الَّتي أقسَمَتْ على الصَّرم، وتعمَّدت ارتكابَ الإثم، وصمَّمَتْ على الجُرم، ويُشعِرُ لفظُ الغَيْبَة بمدى بُعدِهم عن جنابِ الحقِّ، وضآلةِ مَكانتِهم، وصِغَرِ شأنِهم، وسَخافةِ عَقلِهم.

دلالةُ الخبرِ ﴿نَآئِمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

النَّومُ والغَفلة عَـــن لُـحـوقِ العَذاب بالجنَّة

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ اسم الفاعل ﴿نَآئِمُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على اتِّصافِهم بالنَّوم المُستغرِق الَّذي لابَسَهُم، بحيثُ لا يَشعرونَ بوجودِ نارٍ أحدقَتْ بجنَّتِهم، فقد ناموا نَوْمًا عميقًا أذهلَهُم، وأنساهُم قُدرةَ اللّه تعالى عليهم وعظيمَ مَكرِه، والَّذي دلَّ على النَّوم الثَّقيل أنَّهم أقسَموا على صَرْمِها في الصَّباح، ممّا يدلُّ على أنَّهم يُباشِرونَ الصَّرمَ في أجزاءٍ من اللَّيل، لكنَّهم ما استفاقوا إلّا كانَ الصَّباح قد بدأ، فقالوا: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾، والغداةُ أوَّلُ النَّهار وباكرُه، وهذا شأنُ العُصاةِ في نَومِهم الثَّقيلِ، وغفلَتِهم العَميقة، وأفادَتْ صيغةُ الجمعِ شمولَ النَّوم جميعَهم بلا استثناء، كما عزَموا على الفعلِ من دونِ استثناءٍ.

دلالةُ الجملةِ الاسميَّة ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾:

العَجزُ الثّابت البـاهِـر دليـلُ الافتقارِ للقويِّ القادِر

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الحاليَّة الاسميَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثُبوتِ النَّوم واستقرارِه ودَوامِه لهم، فقد ارتختْ مفاصلُهم، وتعبتْ قواهم بعدَما أضمَروا السّوءَ؛ استعدادًا لقطفِ الأثمارِ والاستئثارِ بالأموال، فنزلَ العذابُ بهم، وهم غافِلون

بالنَّوم، عاجزونَ عن الشُّعور بحقيقةِ الأمرِ، قال أبو السُّعود: "غافِلونَ عمّا جرَتْ بهِ المَقادير"[1]، فالغرضُ من هذه الجملة: الإخبارُ بعجزِهم وضَعفِهم وحاجتِهم، وفيها شيءٌ من التَّهكُّم على حالِهم؛ إذ نزلَ العذابُ بأموالِهم، وهُم لا يشعرونَ، بعدَ أن ظنّوا أنَّهم غالبونَ صاروا مَغلوبينَ بالعَجْزِ والضَّعف.

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾:

سُرعةُ الحُصول بسُرعةِ النُّزول

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالة على سُرعةِ التَّحوُّلِ والتَّبدُّلِ بطَوَفان ذلكَ الطّائفِ العجيب؛ إذ (الفاءُ) للتَّعقيبِ بلا مُهلةٍ، كما تدلُّ على التَّسبُّبِ عمّا قبلَها، وفي ذلك إشارةٌ إلى آثارِ نُزولِ عذابِ اللّه؛ فليُحذَرْ، وليُخشَ غضبُهُ وعِقابُهُ تعالى.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي النّاقص: ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾:

بينَ الصُّبحينِ خطّانِ غيرُ مُتوازيين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي النّاقص (أصبحَ)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على الاتِّصافِ بالخبرِ في وقتِ الصَّباحِ وأوَّلِ النَّهار، والغرضُ من تصديرِها للجُملة الاسميَّة تحديدُ زمنِ ثبوتِ الصَّريم للجنَّة تحديدًا ثابتًا مُتمكِّنًا مُحقَّقًا على تلك الشّاكلة في ذلك الوقتِ الباكِر، وفي حصولِ ذلك الاتِّصاف بوقتِ الصَّباح إشارةٌ إلى ما أقسَموا عليه منَ الانتهاءِ من جَنْيِ الثِّمار والصَّرم في أوائلِ الصَّباح؛ تخلُّصًا مِن إعطاءِ الفقراء حقوقَهم، ويكونُ بين قولِهِ تعالى: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ توافقٌ في وقتِ الصَّباح على حُصولِ شيء، معَ اختلافٍ فيه؛ إذ وقتُ الصَّباح عندَهم رِبحٌ، ووقتُ الصَّباح في الواقعِ خسارةٌ ومحقٌ، فلم يَرضَوا بدفعِ القليلِ، فدفعوا القليلَ والكثيرَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 14.

دلالةُ (الكاف) في ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾:

التَّشبيهُ باللَّيل لتصويرِ القَهْر والوَيْل

عبَّرَ النَّظمُ بـ(الكاف) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّشبيه، أي: صارتِ الجنَّةُ في وقتِ الصَّباح بعدَ أنْ كانتْ جنَّةً نضيرةً، كأنَّها اللَّيلُ البهيمُ الموحِشُ من شدَّة الاحتراقِ والدُّخانِ الأسودِ المُتصاعِد منها، بحيثُ مَن يَدخلُها يكونُ داخلَ ليلٍ مُظلِم، قال الهرريُّ: "صارَتْ كاللَّيل في اسودادِها؛ لأنَّ اللَّيلَ يقال له: الصَّريم، أي: صارتْ سوداءَ كاللَّيل لاحتراقِها، أوْ كالنَّهار في ابيضاضِها من فَرْطِ اليَبَسِ"(1)، والغَرضُ من التَّشبيهِ التَّحوُّلُ في اللَّونِ والشَّكلِ معًا، قال النّيسابوريُّ: "شبَّهَ سوادَها بسوادِ اللَّيل الدّامس، وهو آخرُ ليالي الشَّهر، وهو أشدُّ ما يكونُ ظُلمةً"(2)، وأُطلِقَ (الصَّريم) على القطعة الضَّخمةِ التي تَنصرِمُ عن سائرِ الرَّمل، وعلى هذا شُبِّهَتِ الجنَّةُ، وهي محترقةٌ لا ثمرَ فيها ولا خيرَ بالرَّملةِ المُنقطِعة عن الرِّمال، وهي لا تُنبت شيئًا يُنتفَعُ به"(3)، أو: "شبيهةٌ بالبُستانِ الَّذي صُرِمَتْ، وقُطِعَتْ ثمارُهُ، بحيثُ لم يبقَ منها شيءٌ؛ لأنَّ النّار السَّماويَّةَ أحرَقَتْها"(4).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الصَّريم) مادَّةً وصيغةً:

تَحوُّلُ الجنَّة إلى سَوادٍ مِن جرّاءِ ظُلمِ العِباد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الصَّريم) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾، الدّالِّ على اللَّيل باعتبارِ إظلامِهِ وسَوادِهِ ووَحشتِهِ، وإنَّما سُمّيَ اللَّيلُ صريمًا؛ لأنَّه ينقطعُ بالنَّهار، كما يَنقطِعُ النَّهارُ باللَّيل، ولذا كانَ منَ المشترَكِ الضِّدّيِّ، فيُطلَقُ على كلٍّ من اللَّيلِ والنَّهار، وتدلُّ الصّيغةُ (فعيل) على الشِّدَّةِ والمبالغةِ في الانصرام؛ ليُصوِّرَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 94.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 98.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 99.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 94.

عتمةً خانقةً وهَلاكًا مُحكمًا، فيكونَ فعيلًا بمعنى فاعِل[1]، ويحتمل أنْ يكونَ الصَّريمُ فعيلًا بمعنى المفعولِ[2]؛ للدَّلالة على أنَّها أصبحَتْ مصرومةً من الثِّمار بفعلِ الإحراقِ النّازلِ عليها، وضعَّفه ابنُ عبّاس بقوله: "وليسَ يعني المَصرومة، وذلك أنَّ النارَ تُحرِقُ الأشجارَ، فلا تُشبِهُ ما في ثمرِهِ، وإنِ احترقتِ الثِّمارُ دونَ الأشجارِ - وهو بعيدٌ - أشبهَ المقطوعَ ثمَرُهُ"[3]، "وَإيثارُ كَلِمَةِ (الصَّريم) هُنا؛ لِكَثْرَةِ مَعانيها وصَلاحيَّةِ جَميعِ تِلْكَ المَعاني لِأنْ تُرادَ في الآيَةِ"[4].

دلالةُ الطِّباقِ بينَ (أصبَحَتْ) و(الصَّريم):

المُتضادّانِ يَكشِفانِ عنِ البُؤسِ والحِرمان

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن المشبَّهِ به بلفظِ (الصَّريم)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾، ومن دلالاتِهِ: السَّوادُ واللَّيلُ والاحتراقُ، فيكونُ بينَهُ وبينَ الفعلِ ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ مُحسِّنُ الطِّباق[5]، إذِ الفعلِ (أصبحَ) من الصُّبحِ، ويعني الضّياءَ والإشراقَ والبَياض، فيقعُ الطِّباق بينَهما، والغرضُ من إيرادِ الطِّباق هو اجتماعُ المُتضادّينِ في الخيال؛ إذِ الجنَّةُ انقلبَتْ إلى سَوادٍ وليلٍ بهيم، وذلك لا يَبينُ، ولا يظهرُ إلّا مع خيوطِ الصَّباح، فكان الصَّباحُ كاشفًا عن ذلك السَّواد، وهم قد ظنّوا أنَّ الصَّباحَ يكشفُ لهم عن غنيمةٍ بالمال واستئثارٍ به بعدَ الصَّرم، وإذا به يكشفُ عن كمالِ البُؤس والحِرمان.

دلالةُ الجِناس في (يَصرِمُنَّها) و(الصَّريم):

الامتناعُ منَ المكرُمات دخولٌ في الظُّلُمات

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الصَّريم)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ ليكونَ جناسًا اشتقاقيًّا معَ لفظِ ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾[6]؛ فإنَّهما وإنْ كانا بمعنى الانقطاع، لكنَّ الصَّرمَ أُطلِقَ في كلامِهم على قطعِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 235.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 128.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

الأثمار منَ الأشجار، وأُطلِقَ الصَّرمُ في الآية على اللَّيل البَهيم الحالكِ السَّواد، والغرضُ من الجناس أنَّ مَن أرادَ إغضابَ اللّهِ تعالى بعملٍ يقطعُ العَلاقات معه؛ دخلَ في ظلماتٍ وظلامٍ دامسٍ يَنقطِعُ فيهِ عن الضّياء.

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ بينَ الآيتينِ المُتقابلتينِ:

الـجـزاءُ على الأعـمـال بتبديلِ الأفعالِ والأقوال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن نُزولِ العذابِ بجنَّتِهم، بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ لمُقابلةِ إقسامِهم في قولِهم: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، لكنْ جرى تقديمٌ وتأخيرٌ مقصودٌ؛ إذِ الانتهاءُ من الصَّرمِ وجنيِ الأثمارِ في وقتِ الإصباح والدُّخولِ في الصَّباح صارَ وقتًا يَرَونَ فيه ما آلَتْ إليه جنَّتُهم، فقد كانَ في قسَمِهم مَوعِدًا، وصارَ في الرَّدِّ عليهم أصلًا يَرونَ فيه الأمورَ، وقدَّمَ الصَّرمَ في قَسَمِهم للاهتمامِ به، فصارَ نتيجةً لأعمالِهم، لكنَّه صرمٌ بقطعِ اللّه تعالى له بالنّار، فلا يَنتفعونَ منه بشيءٍ.

مَعنى (الفاءِ) والغَرضُ منها:

التَّفريعُ على الإقسام بالتَّنادي للإقدام

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء) قولَه تعالى: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾، على قولِهِ قبلُ: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ﴾؛ للدَّلالة على التَّفريعِ والتَّسبُّبِ، فقد كانَ العزمُ والتَّصميمُ على التَّنفيذ أمرًا مؤكَّدًا لا يَقبلُ التَّراجُعَ والتَّباطُؤ؛ فما إن استيقَظوا من نومِهم إلّا شَرعوا في مُناداة بعضِهم البعض من أجلِ الغُدوِّ إلى الزَّرع للتَّنفيذ، قال ابن عاشور: "فاءُ ﴿فَتَنَادَوْاْ﴾ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى ﴿أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، أي: فَلَمّا أصْبَحوا؛ تَنادَوا لإنجازِ ما بَيَّتوا عَلَيهِ أمرَهُم"[1].

دلالةُ الفعلِ (تَنادَوا) مادَّةً وصيغةً:

الاشـتـراكُ في النِّداء من أجلِ تنفيذِ سيّئ الآراء

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالفعلِ الماضي (تَنادَوا)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على وُقوعِ ذلك التَّنادي والمُناداةِ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

سبيلِ القطعِ بالحُصول، كما تدلُّ الصّيغةُ على المشاركةِ والاتِّفاقِ على التَّنادي، قال ابنُ عاشور: "والتَّنادي: أن يُنادِيَ بَعْضُهُم بَعْضًا، وهوَ مُشعِرٌ بِالتَّحْريضِ على الغُدوِّ إلَى جَنَّتِهِم مُبَكِّرينَ"(1)؛ إذ صيغةُ (تفاعَلَ) موضوعةٌ للدَّلالةِ على المُشاركة، فيكونونَ قد نادَى بعضُهم بعضًا حتَّى طاوَعوا، فوقعَ التَّنادي بينهم، وفي ذلك دليلٌ على التَّوافُقِ والاجتماعِ على القَرار.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضَميرِ الجَمعِ في ﴿فَتَنَادَوْاْ﴾:

أسندَ النَّظمُ القرآنيُّ الفعل الماضي إلى ضميرِ الجَمع (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على صُدور ذلك التَّنادي من كلِّهم أوْ مِن أغلبِهِم؛ ممّا يُفيدُ حالةً من التَّوافُقِ والتَّواطُؤِ على ذلك الجُرمِ الشَّنيع.

التَّوافُق على الفعلِ الشَّنيع

الموقعُ الإعرابيُّ لـ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ودلالتُهُ:

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بلفظِ (الحال)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقييدِ وقتِ التَّنادي بالصَّباح والدُّخولِ فيه، قال الشَّربينيُّ: "في حالِ أوَّلِ دُخولِهم في الإصباحِ"(2)، كما بيَّن الحالُ هيئتَهُم عندَ التَّنادي، وهُم يدخلونَ في الصَّباح، والغرضُ من الحالِ بيانُ نشاطِهِم في اقترافِ ما صمَّموا على فعلِهِ، وأنَّهم لم يتريَّثوا عنه، فقد كانَ دخولُهُم في الصَّباح مُقترنًا بحالةِ التَّنادي من أجلِ تنفيذِ ما أقسَموا عليه، مع أنَّ ذلك الوقتَ ممّا يصعُبُ القيامُ فيه لشِدَّةِ وطأةِ النَّومِ، ويُفيد التَّنادي الصّادرُ منهُم - بعدَ أنْ دخَلوا في الصَّباح - أنَّ استيقاظَهُم كان قبلَهُ بليلٍ أوْ ظلمةٍ، ومعَ دُخولِهم في الصَّباح وقعَ التَّنادي، قالَ الواحديُّ: "لمّا أصبَحوا؛ قالَ بعضُهُم لبعضٍ"(3).

تلبُّسُهم بالصَّباح وهُم عازِمونَ على المَعصيةِ بالصّياح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 359.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 337.

دلالةُ المَجاز في ﴿مُصْبِحِينَ﴾:

استحضارُ الماضي لِرَبْطِه بالحاضِرِ والآتي

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بلفظ اسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾؛ لتحديدِ وقتِ تَناديهم، ومِن المعلومِ أنَّ اسمَ الفاعل حقيقةٌ في الحال، فيكونُ التَّحديدُ به عن تنادٍ وقعَ في الماضي منهم؛ استحضارًا للماضي بلفظٍ يدلُّ على الحال، فهو مجازٌ مرسَلٌ من إطلاقِ الحالِ على الماضي بغيةَ استحضارِه، كقولنا: (جاز زيد راكبًا).

مَعنى ﴿أَنِ﴾ والغَرضُ مِنها في ﴿أَنِ ٱغْدُواْ﴾:

تحقيقُ الوقوعِ دليلُ الرَّغبةِ العارمةِ بالوُصول إلى المطموع

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بـ﴿أَنِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾؛ للدَّلالة إمّا على التَّفسيرِ بمعنى (أيْ)[1]؛ لأنَّها مسبوقةٌ بما فيه معنى القولِ دونَ حُروفِه[2]، كقولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، والغرضُ من التَّفسير الإجلاءُ والبيانُ لما تنادَوا فيه، وإمّا أنَّها مصدريَّةٌ تُؤَوَّلُ هي وما بعدَها بمصدر، وتكونُ منصوبةً بنزعِ الخافضِ المُطَّرد فيها، والتَّقديرُ: (فتنادَوا بالغُدوِّ)، وتفيدُ أيضًا بسببِ (الباء) تصويرَ ما تنادَوا فيه، والَّذي يظهر أنَّها مصدريَّةٌ؛ إذ طَلبوا حقيقةَ الغُدوِّ؛ لدلالةِ المصدرِ عليه معَ تقويةِ وقوعِه؛ بسببِ لفظِ الفعلِ وارتباطِه بالزَّمن، وتلك فائدةٌ للعُدولِ من المصدرِ الصَّريح إلى المُؤوَّل، فيكون الغُدوُّ مُتأكِّدًا لديهم حتّى تنادَوا بحقيقتِه المَحضة.

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿ٱغْدُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الأمـرُ بالفعلِ يُنبئُ عنِ الرَّغبةِ بلا مَهلٍ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بفعلِ الأمر ﴿ٱغْدُواْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾؛ للدَّلالة على التَّحرُّكِ في وقتِ الغَداة وأوَّلِ خُيوطِ الصَّباح إلى البُستان، إذِ " الغُدوُّ: الخُروجُ ومُغادَرَةُ المَكانِ في غَدْوَةِ النَّهارِ، أي: أوَّلِه"[3]، ففي الفعلِ دلالةٌ على التَّحرُّكِ والمُضيِّ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 100.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

والذَّهاب المُقترنِ بوقتِ الغَداة، بخلافِ ما لو قالَ مثلًا: (أنِ اذهبوا، أو أنْ تحرَّكوا...)؛ لاشتقاقِ الفعلِ من لفظٍ يرتبطُ بوقتٍ معيَّن، مثلُ: (أمسَوا، وأصبَحوا)، قالَ القونويُّ: "فاغدوا معناهُ: اخرُجوا غُدوةً"[1]، وفي صيغةِ الأمرِ ما يدلُّ على الطَّلبِ المُنبئِ عنِ الاهتمامِ بالأمرِ والإسراعِ فيه.

أثرُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في تعدُّدِ التَّوجيه:

الإقبالُ الشَّديد على القَصْدِ غيرِ السَّديد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾، مع أنَّ الفعلَ (غدا) إنَّما يتعدَّى بـ(إلى)، وقيلَ: يتعدَّى بـ(على) أيضًا إذا كانَ بمعنى (الغارة)، فإمّا أنْ يكون هنالك تضمينٌ في الفعل (غَدا) مَعنى (أقبلَ)، وهو يتعدَّى بـ(على)[2]، ويُشيرُ هذا التَّوجيهُ إلى مَجازٍ مرسَل في الفعلِ، و(عَلى) مُستعملةٌ في المعنى الحقيقيِّ، أوْ أنَّ حرفَ الجرِّ (على) نابَ عن حرفِ الجرِّ (إلى)؛ إذ شُبِّهَ الانتهاءُ بالشَّيء بالاستعلاءِ عليه، ثمَّ استُعير حرفُ الاستعلاءِ له، فتكونُ هنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ بالحرف، قال ابنُ عاشور: "و﴿عَلَىٰ﴾ مِن قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ مُستَعمَلَةٌ في تَمَكُّنِ الوُصولِ إلَيه، كَأنَّهُ قيلَ: اغدوا تَكونوا عَلَى حَرْثِكُم، أي: مُستَقِرّينَ عَلَيه"[3]، أو شُبِّهَ الإقبالُ والخروجُ لقطعِ الثِّمار بالغُدوِّ والغارةِ على الأعداءِ، بجامعِ مُطلقِ الإتيان ومُطلقِ القطع؛ فالجيشُ يقصِدون قطعَ العَدوِّ وإهلاكَهم، وأصحابُ الجنَّةِ يَطلبونَ قطعَ الثِّمار، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وأُبقي المشبَّهُ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة أوِ التَّمثيليَّة، قال القونويُّ: "فشبَّه [غُدوَّه لقطعِ الثِّمار بغُدوِّ] الجيشِ للغارة، فيكون استعارَةً تبعيَّةً أو تمثيليَّةً، وهذا بناءً على أنَّ (غدا) يتعدَّى بـ(إلى)، دون (عَلَى) إلّا في معنى (الغارة)، وهذا

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 234.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 590، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

معنى (غدا) المتعدّي بـ(على)؛ إذ تعديةُ الفعْل بحروفٍ متعدِّدةٍ إنَّما هي بمعانٍ متعدِّدة في الأغلب"[1]، وأيًّا مّا كانَ نوعُ المجاز، فإنَّ تعديةَ الفعل بـ(على) دون (إلى)؛ للدَّلالة على التَّمكُّن والاستعلاءِ عندَ القدومِ على الحَرْثِ، فيُفيدُ التَّصميمَ الجازمَ لقطعِ الزَّرع، حتَّى كأنَّهم استعلَوا عليه، وتمكَّنوا منهُ بمُجرَّدِ القدومِ إليه.

دلالةُ العُدول عنِ (الزَّرعِ) إلى (الحَرْثِ):

أوَّلُ النَّهار يَتناسَقُ معَ أوَّلِ الأعمال

عدلَ النَّظمُ الكريمُ في التَّعبيرِ عنِ المُضاف بلفظِ (الزَّرع) إلى لفظ (الحرث)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على الجِدِّ والاجتهادِ في الكسبِ، والعمَلِ من أجلِ حُصولِ الزَّرعِ؛ إذ لفظُ (الحرث) - مع دلالتِهِ على الزَّرع والجنَّة - يُشيرُ إلى دلالةِ الكسبِ والتَّحصيل؛ إذِ الحرثُ يُنبئُ عن الحِراثة والعمَلِ الدَّؤوبِ من أجلِ تحصيلِ الزَّرع واستصلاحِ الأرض، قال ابنُ عاشور: "والحَرْثُ: شَقُّ الأرْضِ بِحَديدَةٍ ونَحْوِها؛ ليوضعَ فيها الزَّريعَةُ أو الشَّجَرُ، وليُزالَ مِنها العُشْبُ"[2]، وإنْ كان المرادُ بها هنا الجنَّةَ والضّيعةَ والزَّرع[3]؛ إذِ الغُدوُّ لا يكونُ إلى الفعل بل إلى الجنَّة، بخلافِ لفظِ (زرعِكم)؛ فإنَّه لا يُشيرُ إلّا إلى الزِّراعة ووضعِ النَّبت، بخلافِ (الحَرث) الدّالِّ على أوَّلِ الجُهد وأوَّلِ التَّعب في الزِّراعة، ويتناسَبُ لفظُ (الحرث) مع لفظِ (الغُدوِّ) الدّالِّ على أوَّلِ النَّهار، فيكون أوَّلُ النَّهارِ معَ أوَّلِ الأعمالِ الزِّراعيَّة، كما أنَّ الزَّرع قد يخرجُ بلا زارعٍ أصلًا، بخلافِ (الحرث) الدّالِّ على عملِ الحِراثة للأرضِ تقليبًا وتهيئةً للزَّرع.

نوعُ الإضافةِ في ﴿حَرۡثِكُمۡ﴾:

العُنجهيَّةُ والاستكبار أصلُ كلِّ ذنبٍ وبَوار

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظ (الحَرث) إلى ضميرِ المُخاطَبينَ، في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على المُلْكيَّة؛

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.

والإضافةُ من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه، فيَدلُّ على نِسبتهم الحرثَ والزَّرعَ لهُم، فكيفَ يُشاركُهم الفقراءُ في الرِّبح؟ وفي عدمِ إسنادِ الحَرث والزَّرع إلى خالقِهِ الحقيقيِّ غرورٌ وذنبٌ كبيرٌ، قادَهم إلى العَطَب والهَلاك.

معنى ﴿إِن﴾ والغرضُ منها في ﴿إِن كُنتُمْ﴾:

الإحساسُ بالذَّنب والخَلَل دافعٌ لبيانِ رغبةِ أهلِ الخَطَل

عبَّرَ النَّظمُ بالحرفِ ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الشَّرط، ويُفيدُ أنَّ الأمرَ بالغُدوِّ مُتعلِّقٌ ومقيَّدٌ بثبوتِ إرادةِ الصَّرم للأثمار، ممّا يُشيرُ إلى رغبةِ المُتنادين بحصولِ التَّوافُقِ الاجتماعيِّ على الصَّرم، ومن ثَمَّ يكون إقبالُهم على ذلك الفعلِ أمرًا تصميميًّا ثابتًا لا تراجُعَ فيه، في حينِ ذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى تعليلِ إيراد ﴿إِن﴾ بالقول: "ولَيسَ قَوْلِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ بِشَرْطٍ تَعْليقٍ، ولَكِنَّهُ مُستَعمَلٌ في الاستِبطاءِ، فَكَأَنَّهُم لِإبطاءِ بَعضِهِمْ في الغُدوِّ؛ قَدْ عَدَلَ عَنِ الجَذاذِ ذَلِكَ اليَوْمَ"[1]، فأُريدَ تهييجُهم وتحريضُهم على الإقدام وتركِ الإبطاء.

دلالةُ فعلِ الشَّرطِ النّاقص ﴿كُنتُمْ﴾:

إظهارُ الرَّغبة بكُلِّ ثباتٍ وقوّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (الكَون)، في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَ الاسمِ بالخبرِ على سبيلِ التَّمكُّنِ والثُّبوت، ولذا لم يقُل: (إنْ تَصرموا)؛ لأنَّ الكونَ يُفيدُ الوجودَ والحصولَ على تلك الحالةِ، وهي الصَّرم، فيفيدُ تمكُّنًا في الرَّغبةِ بالصَّرم وثباتًا فيه، واتِّصافًا به على سبيلِ الاستقرار.

دلالةُ الخبر ﴿صَٰرِمِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

العملُ الصّارم إنجازٌ له بشكلٍ حاسِم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ اسمِ الفاعل ﴿صَٰرِمِينَ﴾ خبرًا لاسم (كانَ)، في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاتِّصاف بالصّارميَّة على سبيلِ الحدوثِ المُستمرِّ من (الصَّرم)، بمعنى القطعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

والجَنْيِ للأثمار، وإمّا منَ الصَّرامة على التَّنفيذِ والمُضيِّ في الأمرِ مِن غيرِ تراجُعٍ، معَ شدَّةٍ وانقطاعٍ عنِ التَّوجُّهِ لغيره من الأعمال، ولذا نقول: (هذا قرارٌ صارم)، أي: حاسمٌ لا تراجُعَ فيه لانقطاعِهِ عمّا عداه من التَّوجُّهات، والتَّعبير بلفظِ الجمعِ دالٌّ على التَّوافُقِ الجمعيِّ بين المُتنادينَ على الإقدامِ على الفعل والاتِّصافِ به، قال الهرريُّ: "قاصِدينَ للصَّرمِ وقطعِ الثَّمرة وجمعِ المَحصولِ، وقيل: معنى ﴿صَٰرِمِينَ﴾، أي: ماضينَ في العَزْمِ، مِن قولِهِم: (سَيفٌ صارِمٌ)"[1].

مَعنى (الفاءِ) في ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ والغرَضُ منها:

تعقيبُ الأمرِ بالانطلاق دليلُ الرَّغبة والاشتياق

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) قولَه تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ على ما قبلَه؛ للدَّلالة على التَّعقيبِ والتَّسبُّب، وفي ذلك العطفِ إشارةٌ إلى حصولِ الهياج لهُم بعدَ سماعِهم الأمرَ بالغُدوِّ والإقبالِ على الحرْثِ.

دلالةُ الفعلِ الماضي (انطلقوا) مادَّةً وصيغةً:

الدَّفعُ والإطلاق هيَّجَهُم للانطلاق

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي (انطلقَ)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة على حصولِ الفعلِ لهُم على سبيلِ الوُقوع والقطْعِ بالصُّدور منهم، وتدلُّ مادَّةُ الفعلِ على شدَّةِ السُّرعة في الحركةِ، وكأنَّهم كانوا مَحبوسينَ، فأُطلِقوا، ومَمنوعينَ فأُرسِلوا، وتُفيدُ صيغةُ المطاوعة في الانطلاقِ قبولَ الإطلاقِ لهم؛ إذِ التَّنادي هيَّجَهم، والشَّرطُ ألهبَ مشاعرَهُم، فتحرَّكوا بكلِّ إصرارٍ وقوَّةٍ.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجَمع في ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾:

الانطلاق إلى الجُرم معَ الاتِّفاق

أسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الانطلاق) إلى ضمير الجمع (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة على صُدورِ الفعل منهُم على سبيلِ التَّوافُق والتَّواطُؤِ والاجتماع؛ إذ لم يتخلَّف منهم أحدٌ، أو يتردَّدْ في الإقدامِ على الفعلِ مُتردِّد.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.

مَعنى (الواو) في ﴿وَهُمْ﴾ والغرضُ منها:

الحركةُ الغاشمةُ تمتزجُ بها أصواتٌ هامِسة

عبَّرَ النَّظمُ بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحال، قال ابنُ عادِل: "﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ من فاعلِ (انطَلقوا)"[1]، فيكونُ الانطلاقُ مُتقيِّدًا بحالةِ التَّخافُتِ والهَمْس في الكلام، وتكونُ حركةُ الذَّهاب إلى الجنَّة بكلِّ سرعةٍ، معَ امتزاجِها بأصواتٍ هامِسة لا تعلو، ولا ترتفع، كما أنَّ الحالَ تُبيِّنُ هيئةَ المُنطلقينَ، وقد عَلَتْهُم خشيةٌ من الجَهر بالصَّوت، فقيَّدَتْ طريقةَ نُطقِهم حتَّى صاروا في انطلاقِهم يَتهامَسونَ بكلِّ عُسْرٍ وصُعوبة.

دلالةُ ضميرِ الجَمع (هُم):

استحضارُ المُنطلِقين بكلِّ أوصافِ المُعتدين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بضميرِ الجَمع (هُم) في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الذَّواتِ المُتلبِّسة بالتَّصميم على الصَّرم للأثمارِ وعدمِ استثناءِ شيءٍ منها، والمُتَّصفةِ بالتَّنادي عندَ الإصباح بغيةَ تهييجِ المَشاعر وتحريكِ الخَواطر لتنفيذِ ما أقسَموا عليه؛ إذِ الضَّمير يَرجِعُ إلى الذّاتِ بكلِّ ما اتَّصفَتْ، وتقيَّدَتْ به من صِفاتٍ وقُيود.

دلالةُ الإخبارِ بالمُسنَدِ الفعليِّ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾:

تخصيصُ الإخبار وتقويةُ الانحِصار

أخبرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالجُملةِ الفعليَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة بتقديمِ المُسند إليه على المسندِ الفعليِّ على الاختصاصِ والانحصارِ والتَّوكيد؛ إذِ انحصرَ التَّخافُتُ فيهم، وتأكَّدَ الكلامُ، وتقوَّى الإسنادُ والحصولُ من خلالِ تكرُّرِ الإسناد وإعادتِهِ في الإخبارِ، وعندَ إسنادِ الفعل إلى ضميرِ (الواو).

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ المضارعَ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 289.

إفـادة التَّجـدُّدِ الاسـتـمـراريِّ لحالةِ التَّخافُتِ

الهَمْس عندَ الحديثِ والكلام في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لحالةِ التَّخافُتِ وإخفاضِ الأصواتِ، وكأنَّ كلَّ كلام كانَ أخفضَ جَرْسًا ممّا قبلَهُ، وكلَّ حديثٍ كان أخفى ممّا قبلَهُ، حتَّى دَخلوا في حالةِ تشارُكٍ وتوافُقٍ على إغضاءِ الأصواتِ وإخفاتِها، حتّى تكاد لا تَبينُ من شدَّةِ التَّهامُس؛ إذ صيغةُ (التَّفاعل) تدلُّ على المشاركةِ دلالةً مُطابقيَّة، وفيها مطاوَعةٌ تقديريَّة، فكأنَّهم طَلَبوا الإخفاتَ، فتَخافَتوا، ونلمحُ دلالةَ (المُجانبةِ) في الصّيغة أيضًا، أي: يَتجَنَّبونَ رفعَ الصَّوتِ بالإسرارِ، ويتشاورون سِرًّا حتَّى لا يَسمعَ بهم أحدٌ، كما دلَّتِ المادَّةُ على حالةِ الخَفت للصَّوتِ بشكلٍ مُبالغٍ به، قال الزَّمخشريُّ: "﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يَتسارّونَ فيما بينَهُم، و(خفيَ وخَفَتَ وخَفَدَ) ثلاثتُها في مَعنى: الكَتْم، ومنهُ: الخُفدود للخُفّاش"[1]، حتّى يكاد النَّفَسُ ينقطِعُ عندَ الحديثِ معَ شدَّةِ الحركةِ والانطلاق، فتكون هنالك شدَّةٌ في الانطلاقِ يقابلُها تهامُسٌ ضعيفٌ يشعرُ بالإعياءِ والتَّعَب، وجوّزَ الهرريُّ أنَّ معنى ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: "يُخفونَ أنفسَهُم منَ النّاسِ حتَّى لا يَرَوْهُم، فَيَقصِدوهم، كما كانوا يَقصِدونَ أباهُم وقتَ الحَصاد"[2].

دلالةُ الكناية في ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾:

الأصـــــواتُ المُتخافتة صورةٌ لغيابِ النُّفوسِ النّاطِقة

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ عن التَّخفّي وعدمِ الإحساسِ بالمُتكلِّمين؛ إذِ التَّخافُتُ في الحقيقةِ قائمٌ بالأصواتِ القائمةِ بالمتكلِّمين، فيلزَمُ من تخافُتِ أصواتِهم تخافُتُهم واختَفاؤهم وعدمُ الشُّعورِ بهم.

دلالةُ الطِّباق بينَ ﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ و﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بأسلوبِ الطِّباق في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا۟﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 590.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.

البُخْلُ والشُّحُّ يجمعُ الضِّدَّينِ بكلِّ قُبح

﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة على اجتماعِ الضِّدَّين في كلامِهم، فقدِ ارتفعَت أصواتُهم عندَ التَّنادي وقتَ الإصباحِ من أجلِ إلهابِ المشاعِرِ وتهييجِ القلوب نحوَ الفعلِ الشَّنيع، وانخفضَتْ أصواتُهُم، وخَفتَتْ عندَ الحديث في الطَّريق؛ خَوفًا من سَماع الفقراء لحديثِهم بُخلًا وشُحًّا، وهكذا حالُ البخيل الشَّحيح، يرفَعُ صوتَهُ للمُطالبةِ بحقوقه كاملةً، لكنَّه يَبلعُ لسانَهُ عندَ المُطالبةِ بأداءِ واجباتِهِ.

مَعنى ﴿أَن﴾ في ﴿أَن لَّا﴾ والغرضُ منها:

تفسيرُ التَّخافُت بما يُفيد الشُّحَّ الثّابِت

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿أَن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٤﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾؛ للدَّلالة إمّا على التَّفسيرِ بها، فتكونُ بمعنى (أي)؛ لأنَّها مسبوقةٌ بجملةِ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ الَّتي فيها مَعنى القولِ دونَ حُروفِهِ، قال الهرريُّ: "﴿أَن﴾ هي المُفسِّرةُ للتَّخافُت المَذكور؛ لما فيه من مَعنى القول"[1]، فـ: "كانَ لفظُهم الَّذي يَتَخافَتونَ به ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾"[2]، وإمّا للدَّلالة على المصدريَّة المَنصوبةِ بنَزْعِ الخافض[3]، أي: يَتخافتونَ بألّا يُدخلنَّها[4]، أي: بعدمِ الدُّخول، وعلى كلٍّ منهما يكونُ هنالك تعلُّقٌ بما قبلَهُ، سواءٌ كانَ تعلُّقَ التَّفسير بالمُفسَّر، أوْ تعلُّقَ المتعدَّى إليه بالمتعدّي، فيتحقَّقُ توضيحٌ لذلك التَّخافُتِ والإسرارِ بهِ، أي: "قائلًا بعضُهم لبعضٍ: لا يُمكِّنَنَّ أحدٌ منكم اليومَ مسكينًا من دُخول الجنَّةِ عليكم"[5]، ويظهر أنَّ احتمالَ التَّفسيريَّة أقوى؛ لأنَّه قُرِئَ بحذفِ (أنْ) - في قراءة شاذة - والمشهورُ حذفُ المفسِّرةِ دونَ المصدريَّة، ولذا اقتصرَ ابنُ عاشورٍ عليها[6].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 96.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 239.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 123.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 337.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1534.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

مَعنى ﴿لَّا﴾ في ﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾ والغرضُ منه:

دلالـةُ الكِناية تُعـمِّقُ النَّـهيَ بالعِناية

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾؛ للدَّلالة على النَّهي الكنائيِّ؛ إذ ليسَ المرادُ نهيَ المساكينِ عن دُخولِ جنَّتِهم، بل المرادُ نهيُ بعضِهم بعضًا عن قَبولِ دخولِ أحدٍ من المَساكينِ إلى جنَّتِهم، "فالنَّهيُ عن الدُّخولِ للمسكين نهيٌ عن تمكينِه منه، حتّى لا ينالَه من الثِّمار شيءٌ[1]، فأوقِعَ: "النَّهيُ على دخولِ المساكينِ؛ لأنَّه أبلغُ؛ لأنَّ دخولَهم أعمُّ من أنْ يكونَ بإدخالِهم أو بدونِه"[2]، فتوجَّهَ النَّهيُ إلى الحَدَثِ المسنَد إلى المسكينِ، وأُريدَ به نهيُ أنفسِهم، بعدمِ تَركِ أحدٍ من المساكينِ يدخلُ جنَّتَهم، والغرضُ من العدولِ عن نَهي بعضِهم بعضًا إلى نَهْيِ غيرِهم، حتَّى تكونَ دلالةُ النَّهي أقوى أثرًا؛ إذ يَلزمُ من نَفْيِ اللّازم نفيُ المَلزوم بخلافِ العَكس، ولذا قالَ الهرريُّ: "والمرادُ بنَهْيِ المسكينِ عنِ الدُّخول المبالغةُ في النَّهي عن تمكينِه من الدُّخول، كقولهم: (لا أرَيَنَّك هاهُنا)، فإنَّ دخولَ المسكينِ عليهم لازمٌ لتمكينِهم إيّاه من الدُّخول، كما أنَّ رُؤيةَ المتكلِّم المُخاطَبَ لازمٌ لحضورِه عندَهُ، فذَكَرَ اللّازمَ؛ لينتقلَ منهُ إلى المَلزوم"[3].

مَعنى الفعلِ المُضارعِ (يدخلُ) مادَّةً وصيغةً:

النَّهيُ عن مُجرَّدِ الـدُّخـول أبـلـغُ في مَـنـعِ الـرِّفـدِ المَسؤول

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ (يدخلُ)، في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ للدَّلالة على عدمِ تركِ أحدٍ منَ المساكينِ يدخلونَ الجنَّة على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار، بحيثُ كلَّما تكرَّرَ منهم الدُّخولُ؛ تكرَّر في مُقابلِه النَّهيُ وعدمُ التَّرك والسَّماح لهم بذلك، وتفيدُ مادَّةُ الفعلِ الولوجَ للجنَّةِ بحركةٍ طبيعيَّةٍ يتَّصفُ صاحبُها بالدُّخول إلى باطِنِها بعدَ أنْ كان خارجًا عنها، فيكونُ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1534.
(2) القنوجيّ، فتح الرّحمن: 14/ 266.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 590، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 96.

النَّهيُ مِن شدَّتِه أنَّهم لا يُريدونَ الدُّخولَ إليها، فضلًا عن طلبِ المُساعدةِ والتَّجوُّلِ فيها، ولذا قال الحنبليُّ: "وهذا مبالغةٌ في النَّهي عن التَّمكينِ منَ الثَّمرة"(1).

دلالةُ التَّوكيد بالنّونِ الثقيلةِ في ﴿يَدۡخُلَنَّهَا﴾:

المُبالغةُ المُؤكَّدة تدلُّ على المُمانعةِ المُشدَّدة

أكَّدَ النَّظمُ الكريم بـ(النّون) المؤكِّدة الثَّقيلةِ للفعلِ المُضارع، في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ للدَّلالة على المبالغةِ في النَّهي والشِّدَّةِ في المنع، بحيثُ لا يُتصوَّرُ بعدَ النَّهي عن الدُّخول ولوجُ أحدٍ إلى الجنَّة، فضلًا عن الطَّلب وإظهارِ الحاجةِ والفاقة، قال ابنُ عاشور: "وَتَأكيدُ فِعْلِ النَّهْيِ بِنونِ التَّوْكيدِ لِزيادَةِ تَحقيقِ ما تَقاسَموا عَلَيهِ"(2).

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

تقييدُ الدُّخول بـ(اليوم) للانتهاءِ منَ الحَصاد والصَّرم

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ (اليوم) بـ(أل)، في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ للدَّلالة على العهدِ الحُضوري، أي: الكفُّ عن الدُّخولِ في هذا اليومِ الحاضرِ المُخصَّص للحصادِ والجَنْيِ للأثمار، والغرضُ من تقييدِ منعِ الدُّخول بذلك اليوم الحاضرِ؛ ليَنتهوا فيه من الصَّرم، فإنْ دخلوا بعدَها؛ فهو مباحٌ.

دلالةُ تقديمِ المفعولِ في ﴿يَدۡخُلَنَّهَا﴾ على الفاعل:

تخصيصُ المنعِ بجنَّتِهم دليلٌ على شدَّةِ جَشَعِهم وحِرصِهم

قدَّمَ النَّظمُ الكريم المفعولَ به، وهو ضميرُ الغائب في ﴿يَدۡخُلَنَّهَا﴾، من قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ على الفاعلِ؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والانحصار، أي: حصرُ منعِ المساكينِ الدُّخولَ لتلك الجنَّة، ويُؤذَنُ لهم بدخولِ ما سِواها، والغرضُ من الحصرِ بيانُ شدَّةِ مَنعِهم، لتقديمِ أيةِ معونةٍ تخصُّهم دونَ مَن سِواهم.

دلالةُ تقديمِ الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريم لفظَ الظَّرف (اليوم)، في قولِه تعالى: ﴿أَن

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالزَّمن المقيِّد لحدثِ الدُّخول بالنِّسبة للدّاخلِ المسكين؛ إذِ المهمُّ أنْ ينتهيَ الدُّخول للجنَّةِ في ذلك اليوم.

الاهتمامُ بالزَّمان يفيدُ التَّقديمَ على الدّاخل في المكان

دلالةُ الاستعارةِ لحرفِ الجرِّ (على):

عبَّر النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ (على)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ، إذِ الفعلُ (دخلَ) يتعدَّى بحرفِ الجرِّ (في)، لكنَّ النَّظمَ عدّاه بـ(على) على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لإظهارِ مَدى انزعاجِهم بالفقراء الثُّقلاء، وكأنَّهم يدخلونَ عليهم، ويتمكَّنونَ منهم، ويأخذونَ ما يحتاجونَهُ مِن جنَّتِهم، وهُم له كارِهون.

تشبيهُ الظَّرفيَّة بالاستعلاء لبيانِ حقيقةِ الدّاخلينَ الثُّقَلاء

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُم﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡكُم﴾ على الفاعلِ ﴿مِّسۡكِينٞ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بعدمِ المدخولِ عليه أكثرَ من الاهتمامِ بالدّاخل؛ لأنَّهم كارهونَ لدخولِهم مانعونَ من إعطائهم، وأمّا دخولُهم على غيرهم؛ فهو خارجٌ عن مضمونِ كلامِهم، ولا موقفَ لهم بإزائِهِ إلّا السَّماحُ والإذنُ.

تقييدُ المنعِ بالدُّخول عليهم مُؤذِنٌ بالسَّماح لهم معَ غيرِهم

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿مِّسۡكِينٞ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿مِّسۡكِينٞ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾؛ للدَّلالة على العُموم؛ إذِ النَّكرة في حيِّزِ النَّهي أوِ النَّفي تدلُّ على العُموم الصّادقِ بأيِّ مسكينٍ كان، كما أنَّ النَّهيَ عن دُخولِ ﴿مِّسۡكِينٞ﴾ واحدٍ بلفظِ الإفرادِ يُفيدُ النَّهيَ عن دخولِ (المَساكين) بلفظِ الجمعِ من بابِ الأوْلى، ويكونُ النَّهي مُتلبِّسًا بالوصفِ العُنوانيِّ للفظ ﴿مِّسۡكِينٞ﴾، الدّالِّ بمادَّته على شدَّةِ الحاجةِ وعدمِ القُدرة على الحركةِ والكسبِ لهَرَمٍ أوْ عَجْزٍ أوْ مرضٍ؛

منعُ الصَّدقاتِ للمساكين دالٌّ على منعِ بقيَّةِ المُحتاجين

إذِ المسكينُ منَ السُّكون، وهو من خواصِّ الفُقراء العاجزينَ عنِ الحركة، ويُفهَمُ منه أنَّ النَّهيَ المتعلِّقَ بالمساكينِ العاجزينَ عن الفعل والمُقعَدينَ عنِ الكَسب يُفيدُ منعَ ما عداهُم من بابِ الأوْلى.

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَغَدَوْاْ﴾:

الغُدوُّ والانطِلاق لمَنْعِ المِسكينِ عنِ المَذاق

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الحالِ مِن ضميرِ ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾، أي: انطَلَقوا، وقد غَدَوا، أي: غادينَ، قال ابنُ عاشور: "وَجُمْلَةُ ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ بِتَقديرِ (قَدْ)، أي: انطَلَقوا في حالِ كَونِهِم غادينَ قادِرينَ عَلَى حَرْدٍ"[1]، ووظيفةُ الحال تقييدُ انطلاقِهم، وبيانُ هيئةِ المُنطلقينَ عند تلبُّسِهم بالانطلاقِ، وهي هيئةُ الغادينَ الغائرينَ على الجنَّةِ بكلِّ قوَّةٍ ونَشاط، وإمّا للعطفِ على جملة ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ أيضًا[2]؛ للدَّلالة على الجمعِ بينَ الانطلاقِ والغُدوِّ، فالانطلاقُ كانَ مُتقيَّدًا بحالةِ التَّخافُت، والغُدوُّ كانَ مُتقيَّدًا بحالةِ القُدرة، أي: انطلقوا مُتسارّين، وغَدَوا قادرينَ، فقد جَمَعوا بينَ هيئتينِ في انطلاقِهم وفي غُدوِّهم.

دلالةُ الفعلِ الماضي (غَدَوا) مادَّةً وصيغةً:

انـطَـلَـقـوا إلى المَـنْـعِ، ونَـوَوا، وإلى ضَلالِهِم غَدَوا

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي ﴿وَغَدَوْاْ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدِّلالة على تحقيقِ غُدوِّهم، وأنَّ ذلك قد صدرَ منهم على سبيلِ القطعِ بالحصولِ والصُّدورِ منهم، وتفيدُ مادَّةُ الفعلِ الدَّلالةَ على الذَّهابِ والمضيِّ المُرتبطِ بوقتِ الغداةِ وأوَّلِ الصَّباح، كالغارةِ والهُجومِ على الشَّيءِ بقَصْدِ الاستيلاءِ والمُباغَتة، قال الهرريُّ: "مَشَوا بُكْرَةً مُصمِّمينَ"[3]، كما تكرَّرت مادَّة الفعلِ الَّتي عُبِّرَ عنها بصيغةِ الأمرِ في قولِهِ: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 123.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 96.

فاستجابوا لذلك التَّنادي بالغُدوِّ، وبصيغةِ الماضي، وفي إيقاعِ فعلِ الغُدوِّ بعدَ فعلِ الانطلاقِ تقييدُ أنَّ ذلك الانطلاقَ السَّريع كان استجابةً لطلبِ الغدوِّ، وأنَّه مُرتبِطٌ بوقتِ الغَداة، وأشارَ ابنُ عاشور إلى عِلَّةِ التَّعبير بفعلِ الغُدوِّ في جملةِ الحالِ بالقول: "وذُكِرَ فِعْلُ (غَدَوا) في جُمْلَةِ الحالِ؛ لِقَصْدِ التَّعْجيبِ مِنْ ذَلِكَ الغُدوِّ النَّحْسِ"[1].

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجَمْع في (غَدَوا):

الاتِّفاق على الضَّلالِ بالإطلاق

أسندَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الغُدوِّ) إلى ضميرِ الجمعِ (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الغُدوَّ قد صدرَ منهم على سبيلِ التَّوافُقِ والإجماع، حتّى إنَّه لم يتخلَّفْ واحدٌ منهم عن ذلك، ممّا يُفيد حالةَ الإطباقِ على الضَّلال الَّذي هُم فيه.

مَعنى حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، والغرضُ منه:

التَّمكُّن والاستقواء دليلُ الغُرورِ والاستِعلاء

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ، سواءٌ فُسِّرَ (الحرد) بالقَصدِ للمنع أوِ الغَضَبِ أوِ السُّرعة، وسواءٌ تعلَّقَ الحرفُ بالفعلِ (غَدَوا)، أو تعلَّقَ باسمِ الفاعِل ﴿قَٰدِرِينَ﴾؛ إذ الغُدوُّ لا يَستعلي استعلاءً حقيقيًّا على المنعِ والقصدِ والغضَبِ والسُّرعة، كما أنَّ القدرةَ لا تعلوها عُلوًّا حقيقيًّا، فيكونُ الاستعلاء مَجازيًّا دالًّا على التَّمكُّنِ من ذلك الحَرْدِ في الغُدوِّ والقدرة، حتّى إنَّه صارَ مستعليًا عليه.

تحديدُ مُتعلَّق ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾:

تعدُّدُ الاحتمالات تنجُمُ عنها الكثيرُ منَ الدّلالات

يحتملُ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بالفعلِ (غدَوا) على أنَّه ظرفٌ لَغْوٌ، وأنْ يكونَ مُتعلِّقًا بحالٍ محذوفةٍ على أنَّه ظرفٌ مُستقِرٌّ، أي: وغدَوا مُتلبِّسينَ بحَرْدٍ، كما يحتملُ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.

أنْ يكونَ مُتعلِّقًا باسم الفاعل ﴿قَٰدِرِينَ﴾، فيكونَ إمّا ظرفًا لَغْوًا أو ظرفًا مُستقِرًّا، والتَّقديرُ: وغَدَوا قادرينَ على حَرْدٍ أوْ مُتلبِّسينَ بحَرْدٍ، كما أنَّ (الحَرْدَ) يتعدَّدُ مَعناهُ المُعجميُّ على ثلاثةِ احتمالات، فهو إمّا الغضَبُ، أوِ القصدُ بالمَنعِ، أوِ السُّرعة[1]، وتعدُّد الاحتمالاتِ الإعرابيَّة والمعنويَّة تنجُمُ عنها الكثيرُ منَ الدَّلالات والعلاقاتِ التَّركيبيَّة المختلفة، حتّى إنَّ ابنَ عاشور قال: "وَفي إيثارِ كَلِمَةِ ﴿حَرْدٍ﴾ في الآيَةِ نُكْتَةٌ مِنْ نُكَتِ الإعجازِ المُتَعَلِّقِ بِشَرَفِ اللَّفظِ ورَشاقَتِهِ مِن حَيثُ المَعْنَى، ومِن جِهَةِ تَعَلُّقِ المَجْرورِ بِهِ بِما يُناسِبُ كُلَّ مَعْنًى مِن مَعانيهِ"[2].

تعلُّقُ ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ بالفعلِ (غَدَوا):

تبيينُ الغُدوِّ، توضيحٌ لحقيقةِ العُتوِّ

الجارُّ والمجرور ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بالفعلِ (غَدَوا)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾، فهو إمّا ظرفٌ لغوٌ منه، وإمّا ظرفٌ مُستقِرٌّ في موقِعِ الحال، وبناءً على هذا الاحتمالِ الإعرابيِّ، وعلى أنَّ معنى الحَرْدِ (السُّرعةُ والقصدُ والغضَبُ)، فإنَّ المعنى على الظَّرف اللَّغْوِ يكون: (وَغَدَوا على سُرعةٍ وعلى قصدٍ بالمنع)، وعلى الظَّرفِ المُستقِرِّ يكونُ المَعنى: (وَغَدوا على غَضَب)، والغرضُ من التَّعلُّق: بيانُ نوعِ الغُدوِّ بالسُّرعة والقصد بالمنع على اللغويَّة، ومن الحاليَّةِ بيانُ هيئةِ الغادي، أي: وغَدَوا غاضِبينَ، وبناءً عليها تكونُ ﴿عَلَىٰ﴾ مُستعارةً للباء استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذِ الغُدوُّ بالسُّرعة وبمُصاحبةِ المَنع وبمُلابسة الغضبِ يكونُ الاستعلاءُ عليها مجازيًّا، ويكون ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حينَئذٍ حالًا من (الواو) في ﴿وَغَدَوْا﴾ مقدَّرةً، أي: مُقدِّرينَ أنَّهم قادرونَ على تحقيقِ ما أرادوا، أي: غَدَوا قادرينَ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 101 - 102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.

على نيلِ مُرادِهم وحُصولِ بُغيتهم، وهم إنَّما حَصَلوا على الخَيبة والحِرمان[1]، أوْ حالًا من حالٍ.

تعلُّقُ ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾:

الجارُّ والمجرور ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾، يحتمل أن يكون مُتعلِّقًا بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾، وبناءً عليه يكونُ تقديمُ الجارِّ والمجرور دالًّا على الاختصاصِ والانحصار؛ لتقديم المعمولِ على العامل[2]، ومعنى (الحَرْدِ) هو المنعُ بقَصْد، أو الغضبُ، أوِ السُّرعة، ويكونُ المعنى: قادرينَ على المَنْعِ، أي: مَنْعِ الخَيرِ أو مَنْعِ ثَمَرِ جَنَّتِهم غَيْرَ قادرينَ عَلَى النَّفْعِ"[3]، وإنْ أُريدَ بالحردِ الغضبُ والحَنَق والسُّرعةُ، فالتَّقديم للانحصارِ أيضًا، ويكونُ المَعنى: وغَدَوا لا قُدرةَ لهُم إلّا على السُّرعةِ، و"لا قُدْرَةَ لَهُم إلّا على الحَنَقِ والغَضَبِ على المَساكينِ؛ لِأنَّهُم يَقتَحِمونَ عَلَيهِم جَنَّتَهُم كُلَّ يَوم، فَتَحَيَّلوا عَلَيهِم بِالتَّبكيرِ إلى جِذاذِها، أي: لَمْ يَقْدِروا إلّا عَلَى الغَضَبِ والحَنَقِ، ولَمْ يَقْدِروا عَلَى ما أرادوهُ مِن اجتِناءِ ثَمَرِ الجَنَّةِ"[4]، وعلى كلِّ التَّوجيهاتِ للمَعاني، فإنَّ تخصيصَ قُدرتِهم بالمنعِ أوْ بالغضَب أو بالسُّرعةِ يفيدُ ضعفَ قُدرتِهم وقلَّةَ حيلتِهم؛ إذ جُلُّ هَمِّهم المنعُ، وعظيمُ قدرتِهم الغضَب، وكبيرُ إنجازِهم السُّرعةُ.

دلالةُ الانحصار تدلُّ على ضَعفِ الأحوال

سرُّ العدولِ:

لمّا كان الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقًا بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾، وكان المعنى: وغَدوا حالَ كونِهم قادرينَ على حَرْدٍ، أي: غضَبٍ وسُرعةٍ وقصدٍ بالمنعِ؛ فلِمَ عدلَ النَّظمُ عن (وَغَدَوا حاردينَ) إلى ما ذكرَ؟ أجابَ ابنُ عاشور بقولِه: "والتَّعبيرُ بـ

العدولُ في الكلام للدَّلالة على هَوانِ الأحوالِ والأحلام

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 585.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 585.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 85.

﴿قَدِرِينَ﴾ عَلَى ﴿حَرْدٍ﴾ دونَ أن يَقول: (وغدوا حاردينَ) تَهَكُّمٌ؛ لأنَّ شَأْنَ فِعْلِ القُدْرَةِ أن يُذْكَرَ في الأفْعالِ الَّتي يَشُقُّ عَلَى النّاسِ إتْيانُها، قالَ تَعالَى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البَقَرَة: 264]، وقالَ: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامَة: 4]، فَقَولُهُ: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ﴾ على هَذا الاحتِمالِ مِنْ بابِ قَولِهِم: (فُلانٌ لا يَمْلِكُ إلّا الحِرْمانَ، أو لا يَقدِرُ إلّا عَلَى الخَيْبَةِ)"[1].

دلالةُ المَوقِعِ الإعرابيِّ لـ ﴿قَدِرِينَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿قَدِرِينَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحاليَّة من ضميرِ (الواو) في (غَدَوا)، والغرضُ منها تقييدُ غُدوِّهم إلى جنَّتِهم بالقُدرةِ، وبيانُ هيئتِهم عندَ الغُدوِّ بكونِهم قادرين، لكنَّهم لم يكونوا قادرينَ على شيءٍ يُذكَر، سِوى أنَّهم قادرونَ على الغضَبِ والمَنعِ والسُّرعة، واللّه تعالى كان قادِرًا على تدميرِ جنَّتِهم بمَنْعِهم من المَنْعِ، وبِسُرعةٍ خاطفةٍ إذ أُحيطَ بها، وكانوا نائمينَ، وكانَ قَدَرُه دالًّا على غضَبِه منهم لسوءِ طَويَّتِهم وخَباثةِ سَريرتِهم، قال الزَّمخشريُّ: "لمّا قالوا ﴿ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ وقد خَبُثَتْ نيَّتُهم؛ عاقَبَهم اللّه بأنْ حارَدَتْ جنَّتُهم، وحُرِموا خيرَها، فلم يَغدوا على حَرْثٍ، وإنَّما غَدَوا على حَرْد، و﴿قَدِرِينَ﴾ من عكسِ الكلام للتَّهكُّم، أي: قادرينَ على ما عَزَموا عليهِ منَ الصِّرام وحِرمانِ المساكين"[2].

الـقـدرةُ الظّـالمة أمـامَ قـدرةِ الله عاجِزة

دلالةُ لفظِ ﴿قَدِرِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿قَدِرِينَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاتِّصافِ بطريقِ اللُّزوم بالقدرةِ القاصِرةِ الحادثةِ المَحدودة، لكنَّهم في الحقيقة كانوا عاجزينَ أمامَ

الـعَـجْـزُ الـتّـامُّ أمـامَ قُـدرةِ الله المَلِكِ العلّام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 591.

هولِ ما رَأوهُ ممّا أحدَثتْهُ القدرةُ التّامَّة والمُطلقة للّه ربِّ العالَمين، ومادَّةُ القدرةِ تدلُّ على أنَّ صاحبَها يعمَلُ بقوَّةٍ ممّا يصعُبُ على غيره إنجازُهُ، وإذا بهم قد عَملوا عمَلًا يُظهِرُ مَدى عَجزِهم وهَوانِهم، ومن ثَمَّ كانَ وصفُهُم بالقُدرة والاقتدار تهكُّمًا بهم وبقواهُم المَحدودةِ الضَّعيفة، قالَ أبو حيّان: "قيلَ: ويُحتَمَلُ أن يَكونَ من التَّقديرِ بِمَعنَى التَّضييقِ؛ لِقَولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطّلاق: 7]، أي: مُضَيِّقينَ عَلَى المَساكينِ؛ إذْ حَرَموهُم ما كانَ أبوهُم يُنيلُهُم مِنها"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبلاء والبلاء والاختبار والامتحان والافتتان:

الابتلاءُ مبالغةٌ البَلاء، والاختبارُ أعـمُّ مطلقًا مـن الابـتـلاءِ، والامـتـحـانُ أخـصُّ مطلقًا مـن الاختـبـارِ، والافتتانُ إيجادُ اختلالٍ لتحصيلِ النَّتيجة

(الإبلاءُ): الإصابةُ بالبَلوى، وغالبًا تكونُ في الشَّرِّ والمكروه، و(الابتلاء): مُبالغةٌ في الإصابةِ بهما، فالابتلاءُ لا يكونُ إلّا بتحميلِ المَكارِهِ والمشاقِّ، وأمّا (الاختبارُ)؛ فيكونُ بذلك وبفعلِ المَحبوب، ألا ترى أنَّه يقالُ: اختبَرَهُ بالإنعامِ عليه، ولا يقالُ: ابتلاهُ بذلك، ولا هو مُبتلًى بالنِّعمة، ويجوزُ أنْ يقال: إنَّ (الابتلاءَ) يَقتضي استخراجَ ما عندَ المُبتلى من الطّاعةِ والمعصية، و(الاختبارَ) يَقتضي وقوعَ الخبرِ بحالِهِ في ذلك[2]، فالاختبارُ يُلاحظُ فيه تحصيلُ الخبرِ والاطِّلاعُ بأيِّ وسيلةٍ كانَ، قال الكفويُّ: "الابتلاءُ في الأصلِ التَّكليفُ بالأمرِ الشاقِّ مِنَ البلاءِ، لكنَّه لمّا استلزمَ الاختبارَ بالنِّسبة إلى مَن يجهلُ العواقبَ؛ ظُنَّ ترادُفُهما"[3]، وفي (الإبلاء) توجُّهٌ مخصوصٌ إلى جهةِ صدورِ التَّحويلِ منَ الفاعلِ، ونظرٌ خاصٌّ إلى قيامِهِ به، وفي (الابتلاءِ) توجُّهٌ مخصوصٌ إلى صدورِ الفعلِ بالطَّوعِ والرَّغبة والإرادةِ الخاصَّة، وأمّا (الامتحانُ)؛ فهو اختبارٌ وتحصيلُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 243.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 216.
(3) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.

نتيجةٍ بالدَّأبِ والجِدِّ في العمَل، فالقيدانِ: (الاختبار، وبالدَّأب) مَنظورانِ في الأصل، والتَّعبيرُ بالامتحانِ دونَ الاختبار: إشارةٌ إلى لزومِ دقَّةٍ وتحقيقٍ وجهدٍ شديدٍ، فإنَّ التَّسامُحَ فيه وفي أمثالِهِ يوجِبُ خَلَلًا وفسادًا، و(الافتتانُ): يُلاحظُ فيه إيجادُ اختلالٍ واضطرابٍ حتّى يتحصَّلَ المطلوبُ والنَّتيجةُ[1]، ولذا اختارَ النَّظمُ الابتلاء لما فيهِ منَ التَّقليبِ والتَّحويلِ في نَظْمِ الأمورِ وبَرنامَجِ العَيشِ؛ إذ ابتلى أهلَ قريشٍ بالنِّعمة، فبطروا، فابتلاهُم بالجَدْبِ والقَحْط، كما ابتلى أصحابَ الجنَّة بالجنَّة النَّضيرةِ، ثمَّ ابتلاهُم بإحراقِها وتَدميرِها.

الصَّرم والقطعُ والجَذُّ والقَطْفُ:

الـصَّـرمُ أخـصُّ مـنَ الـقـطـعِ، والـجَـذُّ أشـدُّ مـن الـقـطـعِ، والقطفُ القطعُ بانتظامٍ

(الصَّرمُ) هو القَطْعُ القويُّ الَّذي يَظهرُ عندَ رُؤيتِهِ بالعُيون من شدَّةِ الفَرْقِ والفَصْلِ والجَنْيِ، ومِن ثَمَّ اقترنَ بالصَّباح الَّذي يُعلَمُ بضوئِهِ أنَّه قد قُطِعَ، بخلاف (القطع) الذي يكونُ ظاهرًا، وقد يكونُ خافيًا، قالَ المصطفويُّ: "الصَّرمُ: الفَرْقُ بالقطعِ، وليسَ بمُطلقِ فَرْقٍ ولا قَطْعٍ، فيقالُ: صرمَ النَّخلَ والجبلَ والعِذق؛ إذا قطعَ جُزءًا منها، وفرَّقَها عن الأصلِ، والقطعُ مُطلقُ إيجادِ حَيلولةٍ وفصلٍ في الارتباطِ والاتِّصالِ بينَ الأجزاء"[2]، وعندَ العسكريِّ: "القطعُ يكونُ ظاهرًا وخافيًا"[3]، "ويُطلقُ القطعُ أيضًا على فَصْلِ الجِسْم بنفوذِ جسمٍ آخرَ فيهِ، فَيَحتاجُ إلَى آلَةٍ نفّاذة فاصلةٍ بالنُّفوذ"[4]، "وأمّا (الجذُّ)؛ فهو الاستئصالُ وتفريقُ الأجزاء حتّى تَنمحيَ الهيئةُ التَّركيبيَّة"[5]، "و(القطفُ) قطعٌ بانتظامٍ لغرضِ الاستفادةِ منه، ولذا يغلبُ في

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 299، 11/ 40.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 278.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 151.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 730.
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 59.

قَطْفِ الثِّمار"[1]، ولذا ذكرَ النَّظمُ (الصَّرم)؛ لما فيه من مُبالغةٍ في القطع حتَّى لا يُبقي القاطعُ منه شيئًا يَأخذُهُ الفُقراءُ.

التَّخافُتُ والتَّهامُس:

الخَفْتُ أخفضُ منَ الهَمْسِ

(الهمسُ): هو قولٌ أوْ عملٌ يَخفى صوتُهُ، ولا يَصِلُ إلى حدِّ الخُفوت، ومِن مَصاديقِهِ: الهمسُ في الكلام، والهمسُ في الوَطْءِ والمشي بحيثُ يَخفى صوتُهُ، وفي الأكلِ بحيثُ لا يُسمَعُ صوتُ المَضْغِ[2]، وأمّا التَّخافُتُ؛ فمِن خفتَ الصَّوتُ خُفوتًا: سكنَ، ولهذا قيل للميِّتِ: خفتَ، أي: انقطعَ كلامُهُ، وسكتَ، فهو خافِتٌ، والمُخافتةُ والتَّخافُتُ: إسرارُ المَنطِق، والخَفتُ مثلُهُ[3]، فظهرَ أنَّ الأصلَ الواحد في هذه المادَّة: هو خفضُ الصَّوت إلى حدٍّ يَقرُبُ من السُّكون والإسرار، وهذا المعنى في مُقابِلِ الجَهر، فإنَّ الجهرَ هو رفعُ الصَّوت والإظهار بحيثُ يَسمعُ كلُّ أحدٍ يقربُ منهُ علنًا، ومن ثَمَّ ذَكرَ النَّظمُ (التَّخافت) دونَ (التَّهامُس)؛ لأنَّهم بالغوا في خفضِ الصَّوت صيانةً عن الإظهارِ، بحيثُ يسمَعُ بأصواتِهم الفقراءُ، فيَتبعونَهُم.

المِسكينُ والفَقير:

العَلاقةُ بينَهُما العُمومُ والخُصوصُ الوجهيُّ

السَّكنُ أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ يدلُّ على خِلافِ الاضطِراب والحَركة، يقالُ: سكَنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، فهو ساكِنٌ[4]، وقال ابنُ السِّكّيت: المِسكينُ الَّذي لا شيءَ له، والفقيرُ الَّذي له بُلغةٌ منَ العَيش، وقال الأصمعيُّ: المسكينُ أحسنُ حالًا منَ الفقير، وهو الوَجيهُ، والمِسكينُ أيضًا الذَّليلُ المقهورُ، وإنْ كانَ غنيًّا[5]، فالمسكينُ: هو الَّذي بلَغَ في السُّكونِ إلى أقصاهُ، وتجاوَزَ حدَّهُ، ويُعبِّرُ هذا عمَّنْ يكونُ مَحدودًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطف).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 266.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (خفت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (سكن).

قُدرةً وقوَّةً وتمكُّنًا، بحيثُ يَعجَزُ عنِ السَّعْيِ والجَهد في توسِعةِ المَعيشة، إمّا لمرضٍ أوْ لهَرَمٍ أوْ لضعفٍ في البَدَنِ أوْ في المال، والفقرُ ما يقابلُ الغِنى، وهو الحاجةُ، وبينهُما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ، فقد ذُكِر في مَوردِ الإطعام عنوانُ المسكين دونَ الفقير، فإنَّ الفقيرَ له حاجةٌ، ولكنَّه ليس محصورًا ومَحدودًا كالمُقعَد، فهو يتمكَّنُ من الجهد وتحصيلِ الطَّعام وتهيئةِ الوسائلِ وتوسِعة المَعيشة، وهذا بخلافِ (المسكين) غيرِ المتمكِّن العاجزِ المَحدود، وقد يُذكَرُ المسكينُ معَ الفقيرِ فيُلاحظُ في كلٍّ منهما معناه الخاصُّ به، ويُرادُ من المسكين جهةُ كونِهِ محصورًا ومحدودًا، ومن الفقير جهةُ فقرِهِ وحاجتِهِ[1]، والحاصلُ: أنَّهما يجتمعانِ في المُحتاج العاجِز، وينفردُ المسكينُ في العاجزِ غيرِ المُحتاج، وينفردُ الفقيرُ في المُحتاج الَّذي ليسَ بعاجزٍ، وآثَر النَّظم ذِكرَ المسكين دون الفقير؛ لأنَّهم عاجزونَ عنِ الكسبِ لهَرَمٍ أوْ مرَضٍ أوْ شَيخوخةٍ، فهُم مُحتاجونَ بدليلِ الطَّلب والسُّؤالِ وعاجِزونَ معًا.

الحَرْدُ والحِدَّةُ والغَضَب:

الحَرْدُ: هوَ أن يَغْضَبَ الإنْسانُ، فيبعُدَ عَمَّن غضِبَ عَلَيهِ، وهوَ من قَوْلك: كَوْكَبٌ حريدٌ، أي: بعيدٌ عَن الكَواكِب، وحيٌّ حريدٌ، أي: بعيدُ المحلِّ، ولِهَذا لا يوصَفُ اللّه تَعالَى به، ويجوز أن يُقال: إنَّ الحَرْدَ هوَ القَصْد، وهوَ أن يبلغَ في الغضَبِ أبعدَ غايَةٍ[2]، والحَرْدُ: المنعُ عن حِدَّةٍ وغضَبٍ[3]، فهو التَّنحّي على حِدَّة، وبتناسُبِ هذا المفهوم تُستعمَلُ في الغَضَبِ والمنعِ والعُدولِ والاعوجاجِ والنَّكَدِ، وهو قِلَّةُ الخيرِ والمنعُ عنِ الدَّرِّ، وأمّا الحِدَّةُ؛ فمأخوذٌ فيها معنى الشِّدَّةِ دونَ التَّنحّي[4]، والغضبُ مأخوذٌ فيه تشدُّدٌ في قِبالِ شيءٍ آخَرَ[5].

الحَـرْدُ أخـصُّ مُـطـلـقًـا مـنَ الغضَبِ والحِدَّة

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 170.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.
(3) الرّاغب، المفردات: 2/ 175.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 165.
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 244.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"